رواية

وساوس هابيل

تقديم الدكتور

سمير صالح

عصام الدين جاد

وساوس هابيل

روايـــــة

عصام الدين جاد

العالمية للصحافة والنشر والتوزيع «ش . م . م»
تأسست سنة ٢٠١٤ م

رئيس مجلس الإدارة : هشام جاد
المستشار الثقافى : مصطفى زكى
الغلاف : محمد مصطفى
الإخراج الداخلى : محمد البيطار
الرسومات : إبراهيم الشيخ
الخطوط : إبراهيم بدر
المدقق اللغوى : محمد خضر ـ عاطف عبداللطيف
التصميمات : جويلى جاد

Email: info@elkalimanews.com

Website: www.elkalimanews.com

المقر : زهرة المدائن - الحى الرابع – الهضبة الوسطى– المقطم – القاهرة – جمهورية مصر العربية

Mobil: 01017517494

تطلب كافة منشوراتنا : مكتابات دار المعارف

phone: 0227302063

FaceBook/ Alealamia2014

ترقيم دولي: 978- 977- 8558 4-5-1
رقم الإيداع: 22150 / 2019

جميع الحقوق محفوظة للناشر وأى اقتباس أو تقليد وإعادة صياغة أو طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية . جميع الشخصيات والأحداث والأماكن من وحى الخيال ، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير .

مقدمة:

وساوس هابيل.. عاطفة البداية وواقعية النهاية

لم يتهرب الكاتب من كونه إنسانًا يتعايش فى مجتمع واقعي، لابد وأن تكون له نهاية تتصف بالمعقولية بعيدًا عن رومانسية الخيال وآماله. ورغم ذلك لم يفتقد هذه المشاعر الصادقة التى طالما حاصرته بدوافعها النبيلة. فكانت وساوس هابيل باعتباره بشرًا تجتمع فيه خصال التسلط والطمع؛ لاهثًا وراء متع الحياة كما يشعرها ويستحسنها فى نفسه الجامحة، ومن ناحية أخرى يتحلى بدوافع الخير وبواعثه التى فُطر عليها والبحث عن الحقائق مهما اكتنفها الغموض والشوائب. فالعالم الإنسانى لا يقوم إلا بصراع مكنونات النفس البشرية ما بين غايةٍ يبتغيها وتضحيةٍ لاستقامتها. ومن هنا كان «الإنسان».

لم تكن وساوس هابيل غامضة حد النفور عن قراءتها، وكذلك لم تكن النهاية بعيدة المنال عن تصور حدوثها. فقد أبحر الكاتب بينهما فى عالمين، تارةً صادقًا متلهفًا فى وصف مشاعر حالمة بالمعروف الواضح لديها، وأخرى متشككًا باحثًا عن اكتمالها الطبيعى والمألوف، يتوسطهما الغموض اليسير؛ بحثًا عن المحطة الأخيرة.

وطالما أدركت الوصول إلى الهدف المنشود، وأيقنت أنك قد استرحت من عناء الإبحار؛ حيث الهدوء والاطمئنان بأن النهاية قد أوشكت، صادفت الأحداث المتتالية التى تُبحرك من جديد فى أعماق المجهول، كالأمواج حينما تُقذفك إلى نهايتك، ودون سابق إنذار، هى نفسها التى تدفعك إلى حيث اعتقدت بأنه الهدوء والاطمئنان، كسفينة تقودك بلا قبطان حيث تريد ولا تريد فى آن.

فعندما تجتمع قوى الشر وبواعثها، تتصدى لها قوى الخير والإنسانية، فى صراع تتبادله الضربات فى أعماق أسسه وقواعده من الناحيتين، لتبقى الحياة وتستمر فى صورها التى خُلقت عليها. وتستمر الطعنات... وتستمر الحياة... إلى أن يجتمع قابيل وهابيل وأولاد الشيطان وكل من عليها فى المشهد الأخير.

الدكتور

سمير صالح

مدرس قانون المرافعات المدنيةوالتجارية - جامعة القاهرة

إهداء مخذوف...

«حبيبتى.. لن ينساكِ قلبى يوماً»

عذراً!! فليس كل ما يصاغ يظل صادقًا وبديعًا...

فلوعة الكلام فى قصصنا الحقيقية، ولكن هناك أناسًا استطاعوا أن يوهموا من حولهم بالجمال.. فهل للجمال وجود ما دام القلب يملؤه الكذب؟!

نحاسب نوايانا ونوايانا تحاسبنا،،،

الأحد ٢٣ أغسطس

الأحد ١١ أغسطس

أيام متشابهة ومعدودة بين اللقاء والفراق، فماذا تخفى الأرقام.. السنون؟!..

لم أستطع أن أتذكر اسمك.. فقد شبهتك فى الماضى بـــالـ «شروق»..

والآن لا أعلم من أنتِ؟

عمر

٢٢ أكتوبر

«قهوة المجروحين»

جعلتنى أسأل عن أناس غير جديرين بسؤال عابر . .

كنت إلى جوار بابك . . طال انتظارى . . سألنى الجيران : من أنت؟! أسارق أم متطفل؟!

شرحت لهم أننى عابر على باب الحب .

بإشفاق رد على أحد ساكنى منزلك :

ـ سؤالك ومرادك حلم من أحلام «عشم إبليس» فى الجنة .

تعجبت . . قلت : لست «إبليس» ولكن هى جنتى يقينًا . .

رد ببرود : المراد من قولى ليس المضمون وإنما النتيجة . . أنت تحلم بجنة تعتقد أنها جنة لكنها أشواك وأشواك . . حتى عنبها مسموم مختمر . . إن شربته سكرت ومت ميتة السكران الأبله!

كان كلامه ثقيل على قلبى . . ماذا يقصد وما مراده؟!!

لا أعلم .

تركنى جالسًا على إحدى درجات السلم فى أوج الشتاء ، حتى أنه لم يعزم على أن أدخل ولو على وجه الشفقة . . أن أنتظر بالداخل .

نعم . . كلامه غريب . . يمكن أن أنتظر كثيرًا وأكون ضيفًا ثقيلًا . . .

مررت كل يوم . . كنت أنتظر ساعةً تلو الأخرى . . أنتظر أيامًا امتدت إلى أشهر .

وإذا به ينظر لى نظرة العاقل للمجنون . . خائف منه ومشفق عليه فى آن!

إنه يريد أن يحدثنى عن شيء لا أعرفه . .

فكلامه ونظراته وطريقته فى الحديث مريبة . . .

ـ بعد إذنك يا عم!

أنا آسف هزعجك بعض الدقائق ، واعذرنى فأنا مثل أولادك .

ونظر إلىّ وكأنه لا يسمعنى ولا يراني!

بحثى ليس جنونًا ولا عتهًا ولا لهثًا وراء شهوة . .

فى آن تبحث عن العفة فى إنسان وجدت فيه بيتك وقلبك وروحك وحواسك لتبحث معه عن الاستقرار.

قد يكون سبب خلق حواء من آدم من ضلع لتكون بجانبه ومن تحت كتفه لتكون بحمايته ومن جهة قلبه لتكون محبوبته.

نعم.. إننى أبحث عن ذلك..

هذا مرادى ليس طمعًا وإنما هو صدق مع النفس ـ لتكون جانبى تحمينى وتحبنى.

ماذا أريد غير ذلك؟

وخلقنا نحن أولاد آدم.. ومعنا بنات حواء لنكن كفًا على كف؛ لنكف عن مغريات شيطان.

بحثت عنها بصدق راهب عن أى مغريات، فأنتِ كنتِ السيدة التى أنشدتنى بروحها من بحر زاد فيه الإغراء لم ينادنى غيرك.. سأنتظرك لأرد جميلك وأرد جميل الصدفة..

لا، «عم أبو أحمد» يطيل النظر إلىّ ولا يرد ـ مجرد رد على ـ ومازلت أرى بعينى خبث جدران منزلها، وأنها تنال منى بالضحك المستفز ببابه الخشبى الذى تحاصره رائحة التراب.. تراب عفى عليه الزمان، ومن يسكنه يشعر باختناق حسرة الوصول فى الصحراء.. ينهال على بالضحك بصراخ صفير هواء سكون الليل وأنت راقد أعلى جبل تنتظر سماحة الوقت لتلمح نجمًا تسير على هديه لينير ضالتك.

لم أملّ ولكن أعطيت لنفسى فرصة التفكير لأصل.

لم أجد من يرد..

وكعادتى لا أحب ركوب المترو.. تلك العلبة الصفيح المغلق زجاجها وداخلها أنفاس لو ازدادت لانفجر من كثرة لهيبها، فهى عربة من الطبيعى أن تمتلئ بـ ٦٠ فردًا لكل ناحية، وليس من الطبيعى أن تمتلئ بـ ١٢٠ فردًا.

ولحسن حظى وجدت مكانًا خاليًا فجلست.

باقٍ على محطتى أكثر من خمس محطات لأخرج لمحكمة بالجيزة..

وفى المحطة الثالثة قبل الأخيرة نهضت ووقفت أمام الباب . . .

وقبل أن يُغلق

وجدتها فى وجهى . . انهال على المشهد الدراماتيكى . . الباب يغلق عليك والوقت لا يمهلك فرصة الارتواء .

متسرعًا أخطو لأنتقل إلى محطة الرجوع لأراها .

لم أجدها ولم ألحق بمهمتى المهنية .

ضللت الطريق ونسيت ذاتي ، كانت كل أمنيتى فى ذلك الوقت أن يحدث عطل أو خلل ولو انحبست أنفاسى ويكون سببًا لأراها ولو لثوانٍ . . .

شيء يناديني من الظلام . .

من كوب لكوب أتجرع القهوة .

من قتل براءتك؟

كنت أنتظر أن أراكِ كما عهدت صورتك المحفورة فى ذهنى . . .

تلك الفتاة البريئة التى تمنيت رؤيتها كثيرًا فى أحلامى . . .

ماذا أصابك؟

ومن قتل ابتسامتك؟

هل ترسم الابتسامة؟

أريد أن أراها على وجهك من جديد . .

عيناكِ بها ذبول الزمان . . كل الزمان . .

العروق تنتفض فى عنقك . .

وشعيرات عينيكِ تزداد احمرارًا تكاد تنفجر . .

يداكِ كيد سيدة عجوز تزداد عليها الزرقة كمن شرب سمًا ، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، بل يكتب ويتلو وصيته ! !

هيئتكِ عليها احتضار من ينتظر أن يُتلى عليه حكم إعدامه . . وأمام عينه «حبل عشماوي» .

ذهبت لمن أحب أن أكون معهم وفى حضرتهم «مدد يا حسين» .

جلست بجانب الضريح وأنا أفكر فيما ابتليت به . . .

وأتذكر من هى وكأنى أتعرف عليها من جديد .

جاءنى أحد الدراويش وهو يلبس السبح على رقبته وبعمته الخضراء ولباسه الرائع المريح للنظر . .

«فكر يا عبدالله فى الله واسأله سيستجيب» .

لم يقل لى أكثر من ذلك .

أنا المحتاج أنا السائل والعابر .

أتذكر معالمها وكأنى نظرت إليها وقتها لتذكرنى من هي ، وماذا كانت لى .

(رحمة) . . هذا الاسم المريح الذى يهدئ من روعى كلما ذُكر أمامى .

أين أنتِ؟

وجدتكِ للمرة الأولى على باب كليتنا . . كنتِ فرحة وقتها . . تنظرين لهذا المبنى وكأنكِ تطلين على باب من أبواب الفضاء لتنظرى على العالم .

عادتك غريبة . . كنت تعشقين الشاى وكأنكِ أدمنتِه . . أو على موعد لقاء غرامى تنتظرينه كل ساعة .

كمتطفلٍ دخلتُ عليكِ تحت الكشك الخشبى . . وكنت سأبادركِ بسؤال عابر . . فكان ردك غريبًا بنظرات صامتة .

جلست أترقبك وأنت تستمتعين بهذا الكوب .

نظرتِ إليّ وجئتِ ناحيتى لتسأليني : ماذا تريد . .

وقتها لم أتذكر ، وتلعثمت فى ردي ، وجلستى بجانبى وكأنك تطيبين خاطرى فى صمت أيضًا .

هذه كانت البداية . . لمست فيكِ حنانك ولمست روحك البريئة .

كنتِ اجتماعية انطوائية ضاحكة ومبكية ، داخل عينيكِ أسرار وكأنها تخبئ بحورًا من الكلام . . .

لماذا رأيتك اليوم هل هو طيفك أم التقاء الأرواح؟

ولمَ أنا لا أنفق بعضًا من عمري، بل عمرى كله لفتاة كما فعل موسي؟

بكيت عندما تذكرتك.

وكأن شيئًا خطف قلبى وسافر إلى مكان آخر...

«وحشتيني»

لا أستطيع أن أجدك ولا أستطيع أن ألقاكِ حتى فى أحلامى الآن.. ولا أستطيع الحديث.. فقلبى لا ينخدع بكلام الهوس...

لحظة ضعف، بل هى لحظة إصرار على المستحيل.

تذكرت خلافاتى معكِ.. ليست مصادفات، وإنما حقيقة لا أعى تفسيرها العلمى.

كنت أعرف هذه الأيام جيدًا، بل الساعات بل الدقائق واللحظات.

كنت فى مثيلاتها من كل عام أجد نفسى أحاول وأحاول، وأسعى للوصول وكأنى لا أدرك العواقب.

أهتم بالبدايات وأترك النهايات للقدر، تجسدت لديّ فصول العام ثلاثة لا أكثر.

شهورًا اقترب.. وشهورًا أبتعد.. وفى الفصل الأخير ينهال على ألم الفراق كالخريف يتساقط رحيق الزهور، فهى لا تذبل إلا فى مظهرها.. نتذكر شجرتها يابسة ولا يمر على ربيع قط.

ليس هذا فقط ما أشعر به فى لحظات يأسى.. وأقول إنها النهاية لمسار حب أحببته كثيرًا.

وترسخت فى عقلى الباطن نظرات الوداع.. وفجأه أجدها أمامى بحقيقتها.

وفى نصف مطاف حبى أشاهد أحلامًا ومواقف تجعلنى أتشبث بها ولا أتركها وكأنها دليل.

فنعمة النسيان بالطبيعة هى ما تجعلنى أجدد عهدى معها وأجدد لقائى.. هل هى سماحة قلبى أم سماحة الظروف أم هو اشتياق للأرواح؟

إلا فى يومنا الأخير هذا، تذكرت أنى سأراكِ كما كنت، تغيرت الترتيبات، وزاد الكبر لماذا لا أتعلم ونسيت أن من تعالى مات مذلولاً ببعوضة!

« الآمال »

أمشى وراء آمالى . . أتشبث بها ، وأتشبث بطموح قلبى وإن عاندتنى الظروف فلى رب ألتجئ إليه دائمًا وأبدًا .

بالدعاء وباليقين تستوى نفسى وأحب وأعشق أن أتلذذ أمامه ، فضعفى فى حضرة الإيمان به قوة لا مثيل لها . .

أطلب منه وأدعو بقلب شغوف لمرادٍ جميلٍ مجملٍ خُلق لخليفة الأرض ، فما إن أتينا فى دنيانا لنحب وبالحب نعمر وما التعمير إلا حب لنكمل مسيرتنا مع من أحببنا وعشِقنا بلا سبب ، فسببى الوحيد أنى أحب ، ومرادى جائز ومحلل فى دنيانا بشرع من خلق قانون الحب والمودة . .

السلام حب والحب سلام والود سلام .

فنحب لكى تسلم دنيانا . .

هناك أيادٍ خفية على أكتافك تحفز ولا تعسر .

حاورتنى نفسي :

أتبحث عن مجهول بين ٧٠ مليونًا ؟!

من أسأل ؟

اتصلت بأحد أصدقائى الضباط ، لعللكِ غيرتِ عنوانكِ .

- حاتم بيه . . مساء الخير .
- فى حد كده عليه شيكات وعايز أجيبه وعنوانه مش موجود فيه !
- تؤمر . . ادينى الاسم .
- رحمة . س . ع .
- لا أنا محتاج اسم رباعى .
- للأسف دا اللى نعرفه .
- هحاول .

■ متعرفش عندها كام سنة .

■ تقريباً مواليد ٨٤ .

■ تمام . . نص ساعة وهكلمك إن شاء الله وهكون جايبلك المفيد .

انتظرت . .

مرت على كل لحظة وكأن شخصًا سرق منى كل ما أملك .

أبحث فى هاتفى عن أى شىء وأفتح البريد الإلكترونى .

اهتز هاتفى إذا بـ «حاتم» بيه . .

يعطينى عنوانها الذى أعلمه والذى أعرفه معرفة محل ميلادى . .

إحدى العمائر القديمة بالقرب من كورنيش النيل بأطراف شبرا مصر .

شكرته رغم أن آمالى كانت تنتظر خبرًا جديدًا ، فلا ذنب له .

ألح على أن أزوره فى مكتبه لأحتسى فنجانًا من القهوة .

قررت الذهاب إلى البيت لأنام ، فلن أستطيع الذهاب للمكتب ، بل سآخذ إجازة منه لأتولى قضيتى الكبرى والمشئومة منذ أن تجرعت لوعة الاشتياق ، حينما مررت على القاعة التى كان فيها محسن هاشم عريسًا ، ونظرت على ذلك القصر الذى شهد طفولتكِ وشبابكِ وضحكاتكِ وابتساماتكِ . . أشاهد طيف وجهك ذا الطبيعة الملائكية ، ولحظات السرحان حينما كنا نتحدث فى ستر الليل . . الله يسامحه .

اتصل بى أخى الصغير الذى ينتظرنى لأتشاور معه عن بحثه الجديد فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية .

ركبت الحافلة وجلست بجوار الشباك كعادتي ، وكأننى طفل يرى العالم للمرة الأولى .

الطريق مزدحم والجو يحوم عليه الغيام وكأنها ستمطر من جديد . . .

سأسلى نفسى بأى شيء وأرى ما الجديد من الأخبار .

وإذ برسالة من محسن هاشم يريد أن ألقاه فى اليوم التالي ، حيث لم أره منذ شهرين .

رددت عليه بأننا سنلتقى فى القريب، ووجدت رسائل أخرى من أصدقاء بتواريخ قديمة جدًا.

وأنا أفتح أيضًا الرسائل التى توجد على الإيميل الخاص بمكتب المحاماة الذى أديره أنا وعدد من الزملاء، فنحن فى الأصل نعمل مع دكتورنا العظيم علاء الجندى أستاذ القانون الجنائى فهو إنسان من الدرجة الأولى يعاملنا كإخوته وليس كعادة مكاتب المحاماة الكبرى أن تكتب أسماء المحامين الصغار العاملين بها.

ورسائل كثيرة جدًا تسأل عن موعد للحضور، أو تحديد لقاء أو استشارة، فقد علّمنا الأستاذ أن نساعد دون استغلال مادام فى الاستطاعة، والعمل المباح، فحثنا على أن نجيب عن أى استشارة دون مقابل.

وفجأة وجدت رسالة باسم أعرفه جيدًا.

«أخت رحمة» أعرف ملامحها جيدًا من صورتها.

أرسلت سؤالاً لتلتقى أحدًا من المكتب.

رددت عليها وحددت لها موعدًا للحضور فى اليوم نفسه، وهى لا تعرف مع من تتحدث.

جهزت نفسى للوصول إلى المكتب بعد أن بدلت ملابسى واعتذرت لشقيقى.

انتظرت فى المكتب دقائق لا تعد.. نسمع رنات خطوات تعلو أكثر فأكثر.. رائحة عطر نفاذة هبت علينا.

وحضرت أختها، والدهشة تعلو الوجوه من شغفى بالانتظار.

■ أهلا بحضرتك.

تنظر إليّ وكأنها التقتنى أمس.

■ ازيك يا عمر وأخبار شغلك إيه؟

■ تمام الحمد لله.

أخبارك وأخبار أهلك الناس الطيبين.

■ الحمد لله .

■ والدك عامل إيه

تنهدت بنفس متقطع.

■ قدر الله وما شاء فعل . . أتوفوا من سنة تقريبًا وهم مسافرين .

ودون شعور :

■ وهى ورحمة فين؟!

■ لا رحمة مسافرة .

■ البقاء لله وربنا يطمنكم على بعض .

■ المهم . .

أنا عايزة أعمل إعلام الوراثة ونقسم الورث لأن كده اتأخرنا .

أنا جيت هنا المكتب لأنى عارفة إن أنت هنا وموجود وكمان زمايل رحمة «ربنا يهديها» .

■ ربنا يهديها ليه فى إيه؟!

■ لا مفيش حاجة . . ربنا يهدينا جميعًا .

هاتفها رن واعتذرت وتركت رقم هاتفها لأتابع معها ونزلت مسرعة .

دخل على عادل عبد العال زميل الدراسة وهو يضحك بصوته الجهور .

■ أيوة يا سيدى «ريحة من الحب القديم» .

نظرت له بجنوح نحو ابتسامة حاولت إخفاءها .

■ لا ده شغل يا أخ عادل ، أنا نازل . . عايز حاجة ، وممكن مجيش بكرة ومتحسبونيش معاكم فى حاجة لأن فى شوية مشاكل فى البيت . . وهكلم الدكتور واعتذر له . . سلام .

نزلت شاردًا مستعيدًا ما قالت.

ورث . . ومسافرة . . وربنا يهدينا .

الكلام غير متناسق . . ولم أسألها عن أختها .

أرسلت لها رسالة على «الفيسبوك» .

■ مساء الخير .

يا ريت تحضرى لى توكيل منكم أنتم الثلاثة .

وهقدم طلب لمحكمة الأسرة .

وهنجيب شهود ليثبتوا أنكم الورثة الوحيدين .

بدأت أغط فى نومى محاولاً الاستماع إلى أبيات نزار قباني ، هذا الشاعر المدهش .

وصوت رسائل تنهال أزعجتنى وأنا غارق فى كلماته .

إنها أخت رحمة...

■ حاضر ، بس ماينفعش نعمل الورق من غير رحمة؟!

■ طبعًا مينفعش . . . وإيه سبب المنع؟!

■ مسافرة . .

■ عادى . . تعمل توكيل فى أى سفارة ، أو فى أى محافظة إذا كانت هنا ، وتبعته .

■ طب هشوف وأقول لك .

■ خير خير . . تمام .

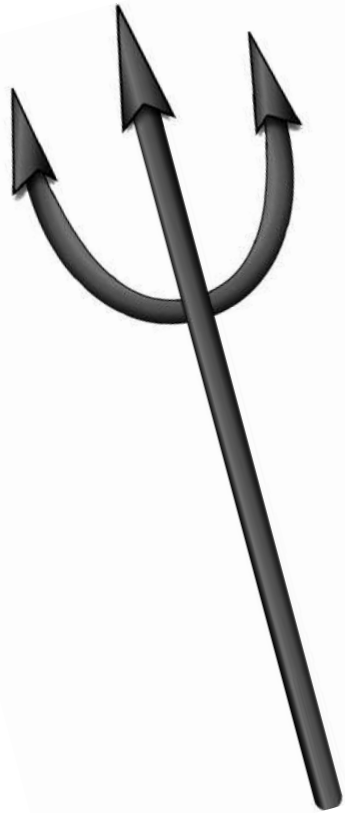

«أولاد إبليس»

لـم يستجب النوم لنداءاتى المتكررة المُلحة . . تفكير . . تفكير ، فالأمر مريب وردودها أيضًا . . ما سبب منع ظهور رحمة؟!! وما الداعى للتذرع بأنها مسافرة بالخارج؟!!

لعله خير . . .

وقبل أى محاولةٍ عابثةٍ جديدة لاستجداء النوم . .

تذكرت . .

وكيف لى أن أنسى . .

أنى رأيتها صباحًا .

عقلى لا يستوعب .

سأتأكد .

حضرت فطورى ومعه القهوة . . عقلى يحب ويتمني أن يستريح . . أشعلت سجائرى واحدة تلو الأخرى . . بدأت فى التفكير فيما قالته صاحبة الإرث ، أو بالمعنى الثاني ، الباحثة عن نزاع الإرث . . وتراودنى فكرة أن ثمة أمرًا أكثر تعقيدًا من أن تكون أختها مسافرة .

انتظرت أن تأتى الساعة ١١ لأتصل بها .

لم ترد ، وانتظرت ساعة تلو الأخرى ، إلى أن تعددت رناتى لعشر محاولات .

مع كل محاولة أتساءل لماذا لا ترد . . وأربط بين نزولها من المكتب بسرعة وأخطائها فى الحديث ، ولماذا لا تريد أن تظهر رحمة .

فأرسلت لها رسائل عدة لعلها تكون نائمة ، أوهناك أمر . .

وبدأت البحث عن حسابها الشخصى لعلى أجد شيئًا .

فكانت آخر صورة تجمعها برحمة منذ سنتين . .

أما غير الطبيعى أن أجد تعليقها عليها «أنا وأولاد إبليس والمحرقة»

تعجبت من تلك العبارة . .

مَنْ أولاد إبليس وما المحرقة؟!

فالمعتاد أن يعلق الفرد على أحبابه بعد يوم أو يومين . . أسبوع لا أكثر، حتى وإن زادت انشغالاته، فليس الجميع مثلى لا أهتم بوسائل التواصل الجديدة.

وما زاد استغرابى أكثر أن تجدها تعلق بعد مرور ٦ أشهر، وبهذا التعليق مخبئًا فى طياته الاستفهام . . فكرت أن يكون تعليقًا كُتب بطريق الخطأ . . لكن كم الإعجابات عليه أكد أنه صحيح!

وقفت كثيرًا . . .

أفكر لساعات لأجد تفسيرًا لهذا.

وبدأت أبحث عن معنى أولاد إبليس، وما المحرقة، وما الرابط بين الاثنين . .

لا أحب أن أبحث على الإنترنت لأنى لا أثق فى معلوماته . . سهلة الكتابة وسهلة التزوير والتزييف . .

اتصلت بأحد أصدقائى وهو من الباحثين فى مجال علوم اللغة.

خريج كلية دار العلوم . . هذه الكلية صعبة المنال والمهدور حقها حقًا مثل كليات الحقوق والعلوم. أعتبرها من كليات القمة، بل كل القمة، فبعض من يسيء الفهم بمجتمعنا يرى ضرورة أن تكون ملمًا بلغة أجنبية، حتى ولو تعمل فى مجال عربى . . أصرخ ضحكًا، فلماذا هم لا يعتبرون العربية لغة وإنما هى أم اللغات وبحور المرادفات والتعبير وبها سبل فهم المعاني، فهى لغة السهل الممتنع، سهلة الفهم صعبة على من لا يحترمها.

ابحث عن رقم «أحمد» هذا الفتى «راهب اللغة العربية» ذلك اللقب الذى لقبته إياه لدرايته ببحور اللغة، وتساعده أموال عائلته، فدونها ما كان وصل لمراد علمه.

ابحث فى هاتفى القديم . .

أحمد حامد - دار علوم

■ ألو . . .

■ إزيك يا أبو حميد . . عمر المحامى . . . إيه مش فاكرني؟

■ حبيبى عمور . . أخبارك ، واحشنى والله ، أخبارك وأخبار الدنيا معاك!

■ تمام والله يا أحمد .

عارف هتقول على «ندل» متكلمناش من زمان .

■ كلنا مقصرين ، الدنيا يا عمر .

■ عايز أسالك عن حاجات كده يا معجمنا الغالى يا جينيس العربى .

■ معاك

■ يعنى إيه أولاد إبليس!!

■ أنت اشتغلت شيخ ولا ايه!

■ حب المعرفة وفى كام حاجة كده عايز أفسرها .

■ أولاد إبليس عددهم «١٤» (زلنبور وثبر والأعور ومسوط وداسم والأبيض وصخر والولهان والأقيس ومُرة والهفاف والغيلان ولقوس والمتقاضي) .

■ وإيه علاقتهم بمصطلح المحرقة؟

■ المحرقة!

المحرقة اللى عرفنها ومشهورة هى «الهولوكوست» اللى قتل فيها هتلر ملايين اليهود .

وأنا للأسف معرفش معلومات غير عامة عن الموضوع ده .

■ تمام ، بس طلب منى لأخويا . . عايزك تدورلى عن مدى الربط بين الاثنين .

■ هحاول يا عمر بجدية .

■ منتظرك وهزعجك كتير .

■ هههه . . عادتك ولا هتشتريها يا شيخ .

■ هكلمك بكرة .

■ أنا هكلمك على طول لو وصلت لحاجة .

■ سلام.

■ سلام يا متر.

انتظرت يومين.. لا اتصل أحمد ولا تواصلت صاحبة الميراث. فهى لم ترد حتى على الرسائل.

لا أستطيع الانتظار ولا الصبر رغم أنى فى مهنة الغالب عليها الصبر والفكر.

يجب أن أبحث عن شيء ليفسر ما سبب اختفاء رحمة وأين أخوها، ولِمَ غابت أختهم فجاة!!

لا بديل إلا أبو أحمد.. هذا الجار الصامت.

سأحاول معه حتى ولو رفض الحديث.

اقترب بيتها من جديد.. أصعد هذه السلالم وكأنى أصعد برجًا عاليًا.. هل هى مسافة أم بعد الحبيب؟!

تعددت طرقاتى على المنزل، ولا مجيب.

وفجأة فتح الباب.. إنها زوجته

■ نعم!

■ مساء الخير.. محتاج والد أحمد... عمر «محامي» وعايز أكلمه فى موضوع شخصى.

■ آه، مش انت كنت قاعد معاه من كام يوم.. أيوة أيوة.. كنت بتسأل على رحمة.

بص يا ابنى.. أبو أحمد صاحب مرض ومبيحبش الرغى الكتير ومبنحبش نتكلم عن حد ولا فى أسرار الناس، كفاية إللى حصل من إخوتها، وكمان عندنا عيال فى الثانوية وهو أساسًا بره.

لما يبقى يرجع هقوله.

ودفعت الباب بطريقة مستفزة وكأنى محصل النور وفاتورتهم تعدت الـ «١٢٠ جنيه»!

نزلت وأنا متمسك بدرابزين المنزل.

نظرت إلى باب بيتها، ووجدت ظرفًا ملقى أسفل الدرج ومكتوبًا عليه «رحمة».. مرسل من أحد البنوك لإنذار دين عليها قيمته ٥٠ ألف جنيه.

«غباء رود امرأة»

خرجت وجلست على مقهاى المعتاد بجانب «سينما دولي» فى أحمد بدوى بشبرا مصر.

أُحدث نفسى عنها كان خطئى أنى تركتها بعد التخرج.. أصابها الخوف منى فهى ترانى المتهور والمتسرع حتى فى مشاعرى.

كنت متسرعًا فى طلبى.. أعلم.. لأنكِ كنتِ غيرهم بسبب حبك لنفسك أكثر من اللازم.

جلست معكِ لآخر مرة داخل هذا المكان الذى أعشقه وأعلم أن مكانته كبيرة وراقٍ..

تعلمين أننى كنت أحب أن أجلس خلف الزجاج المطل على شارع عدلى...

انتظرتك وقتها وكأنك تتهربين منى، وشعرت أنه آخر موعد بينى وبينك، خرجتِ من محطة العتبة لا أعلم مع من كنتِ.

هاتفتكِ مرارًا لتأتى مسرعة.

ردودك غريبة ببرود.. قادمة.. قادمة!

جلستِ ولم تشربى حتى الماء.

نظرت إليكِ.. لأشبع من وجهك هذا.. وابتسامتك المليئة بفرحة الأب بابنه.

لم تنطقى بشيء لنصف ساعة.

■ بحبك.

■ مينفعش

■ ليه؟!

■ أنت حاجة وأنا حاجة

■ إزاي؟!!

■ فكرك وطريقتك.. عصبى وأنا باردة.. إزاى هنعيش مع بعض؟ وليه تخلينى ارتبط بيك واتعلق أكتر!

متستهنش بالمدة اللى اتكلمنا . . فيها أنا عارفة عنك حاجات كتير .

■ أنا اتغيرت وهتغير طول ما أنت معايا ، أنا بحبك وانت عارفة كده كويس . . استنيتك كتير . . واستنيت اللحظة اللى هطلب فيها أيدك . . مش عايز ادخل البيت عندك إلا لما تكونى موافقة .

■ صعب . . وليه نجيب ولاد ملهمش ذنب يتظلموا معانا وبسببنا ، وكده كده مش عايزة اتجوز محامى .

يا عمر انت لعبى وإذا كنت عايز تكمل قصة فى خيالك كملها وقولى نألفها مع بعض .

■ هو أنا لو حابب أكذب أو العب هستنى حد؟! . . انت عارفة إنى كنت بعيد عن الكل عشانك ووعدت نفسى دايما بيكِ . . وكل يوم بحبك عن اللى قبله .

■ الست إللى ورانا دى بتكتب إيه ومالها بتبصلنا ليه كده؟!

■ خلينا فى حالنا ، هنعمل إيه . . خلينا فى موضوعنا .

■ موضوعنا ظاهر ومش محتاج أى تفسير أو حجج . انت تستاهلك أحلى واحدة . . أما أنا وأنت صعب .

■ مالك هتقلبى دراما ليه . أنا محتاجك معايا واستنى عشان اثبتلك إن اللى الناس بتقوله ليكِ عنى أنا هأكد لك إنه مش صحيح حالاً . . .

ثوانى

مصطفى بدر

آه وهفتح الاسبيكر

■ الوو

إيه يا طاطا

عامل إيه

■ تمام

■ بقولك إيه . . فاضي

■نعم . . اه

■هو أنا مبحبش رحمة؟!

■ مين الحمار إللى قال كده؟!

■ خدها معاك وقول لها .

رفضت أن تتحدث ووجهها يملؤه الإحمرار من الكسوف كعادتها . . لا تحب الحديث مع أحد .

■ أنا فاتح الاسبيكر قولها يا ابنى .

■ بصى يا رحمة مش عشان عمر صاحبى . . هو لما بيعمل غلط باعاتبه وأصارحه بيه . . عمر فى حياته حاجات معينة مهمة ومفيش أهم منها . . أبوه وأمه وإخواته وانت وبعدك ممكن أى حد .

ولو ربنا بيحبك يكتبلك عمر من نصيبك لأن أنا مشفتش حد بيحب كده .

جلست صامتة بعدها ، ورن هاتفها . . إنه والدها الذى يعمل بمجال الإعلانات صاحب الشركة الكبرى والسيارة المرسيدس .

ـ أنا همشي ، أتأخرت . .

هفكر يا عمر وهتكلم مع بابا وهرد عليك

■ هستنى ردك بكرة بالليل .

وذهبت وتركتنى وحيدًا وسط عتمة النفس وبين أسئلة تراودنى . . لماذا أفعل كل هذا . . فأنا لست «ناقص» ولا من صفاتى أن أنتظر أحدًا . .

أدرتُ محرك السيارة وفى طريقى للمنزل . .

ثم غيرت مسارى وذهبت إلى الإسكندرية حتى أريح نفسى .

وطول ساعات ثلاث . . أفكر طيلة المسافة ، فسواد الليل كان مؤنسى .

وضعت نفسى فى بوتقة أردتها محالة وأحببتها وحدى . . لا أريد أن أنهى هذا مسرعًا ، موضوع طال حده . . فكلام صديق الطفولة حلو وجميل ورد لصداقتنا ورد للحقيقة . . فهو أصاب عقلى بالجنون ، هل أنا من يتحدث عنه الغير ويطلب رأفته؟! لست أنا من يشفق عليه ويحابى لكى يكف ويصمت . .

أسمع ثوانى الانتظار على الهاتف وأرد مسرعًا..

■ عارفة . . صعبان على نفسي ، عامل زى متعرى حاسس إن كل حياتى بره .

■ إيه فى إيه؟!

■ اخترتك واستنيتك واشتغلت وانشغلت علشانك . .

■ أنت فين؟!

■ فى إسكندرية .

■ ليه؟!

■ مخنوق من كلام مصطفى واللى قاله .

■ فى إيه . . هو إيه اللى حصل وغيّرك كده مرة واحدة

■ عايز ردك دلوقتى . . أنا حاسس إنى ضعيف ومبحبش الضعف . .

■ لا يا عمر لا يا عمر . .

■ آخر كلام؟!

■ آخر كلام .

وانتهت آخر مكالمة بينى وبينها.

صامت أمام أمواج البحر أريد أن أبكى ورسائل من مصطفى وكأنه يشعر . .

■ عملت إيه؟!

■ خلاص الموضوع خلص وأنا بوظت الدنيا .

عارف أنا اتأكدت دلوقتى إن كل اللى عملته ده عشان أثبت لها إنى بحبها .

■ بص هى نفسها ظلماها وربنا مسلط عليها نفسها . .

واستنى يمكن يبقى فى خبر حلو .

■ أنا خلاص كده بالنسبة لى القصة انتهت .

لم أرها منذ وقتها . . انقطعت صلتى بالجامعة ، فلم يعد باقيًا على تخرجنا سوى شهرين .

وسعد الجميع إلا أنا . . حتى خلت صورة الدفعة منى ومنها . فهى لم تأت لأجل ألا أراها . . تخشى أن أعنفها . . وأنا لم أذهب لكى أتناساها .

انقطع تفكيرى فيها من وقتها . . أتذكرها من حين لآخر واصمت حتى لا أشعل ما بداخلى . . فأنا أتظاهر بالنسيان وبعدت المسافات وبعد السؤال وبعدتنا الأيام والسنون .

أضعتك بغبائى وتسرعى كنتِ محقة . .

انتظرتك كثيرًا . . هل كما دفع موسى مهرًا من سنين عمره لمن أحب واختاره قدره؟ . .

أحببت وقتها التأكد . . وظنك فى محله فأنا متقلب . . أترك الشيء مسرعًا ولا تظهر على الحسرة . . أما أنت فتتركين الجمل بما حمل .

حقيقة تخمينك صائب . . فأنا لن استطع العيش إلا بطريقتي ، ولن أتغير . . وإن تغيرت . . فالأيام لكى أثبت لكِ لا أكثر . . .

تمنيت أن تأخذينى فى أحضان قلبك . . وتمنيت أن تحتوينى لأتغير من أجلك .

ومرت الساعات وأنا أفكر فيما خسرته بمحض غباء . .

وأدفع الآن فاتورة باهظة ثمنًا لبحثى عنك . .

«الذكريات المنسية»

شعرت بالملل من الصمت . . أريد أن أراها من جديد . . لا فى الواقع وإنما بصحيفة الأحوال المميكنة . .

هذا الشيء الغريب المسمى بـ «الفيسبوك» . .

وسيلة التجسس الأولى بالعالم . . الكل يرمى ثقله عليها اعتقادًا بالسعادة !

آخر ما نشرته . . .

■■ أنا وأولاد الشيطان والمحرقة .

■■وآخر أيضًا . . تكتب فيه عن قضية تعمل عليها بمحاكم البحيرة .

(اختفاء قاصر واكتشاف زواجها من رجل عمره ٥٠ عامًا ـ عاطل ـ نصاب ـ دجال يبيع وهم الراحة بالكذب للناس اعتقادًا منهم بمعالجتهم) .

إنها تؤكد لى سببًا لما علقت به على صورتهم !

أبحث فى صورها لأجد فاتنة أحلامى بعيدة وهى أمام عينى .

جميلة كما كانت . . فهى صور تؤرخ وقتها فقط . .

تمنيت لو بقيت الصور بوقتها وبمشاعرنا وظلت كما هى . .

عشر سنوات مرت بلا سبب .

ومن هذا الذى على كتفك؟ ابنك أم ابن من؟ !

يزداد الأمر حيرة وحيرة . .

حكيت لكِ يومًا أننى أريد أن يذهب بى العمر لأبقى مع من أحب وأزيح ما فى باطنى من خوف . .

تنقطع أنفاسك بسماعك لى دون تعليق أو حتى بالضحك . . رددتِ الآن بصمتك أيضًا ، بل وضحكتِ لما قيل . .

نسبق القدر بفكر، وأراحنا الله بستره له.

سأنتظر ماذا خبأ لى القدر.

تعبت.. ضغط عقلى مرير.. ومرارته أنهكت بدنى.

أحلام وأحلام أجدها يومًا تلو الآخر تزورنى من جديد.. ولا جديد من أخبار.

رأيتها اليوم مسلسلة فى أحلامي، مقيدة لا تستطيع الحركة.

بدأت الاستيقاظ من الماضى.. يجب ربط الأمور وحتى ما سمعته.

لعلى أصل إلى نتيجة أو سبب... يريح قلبى.

عنوان غير متاح ولا يسكنه إلا الذكريات، وجيران لا يتحدثون ويريدون أن يبتعدوا عن الشر والأسرار، وأخت تبحث عن ميراث ولا ترد وأثارت القلق، وأخ غير معلوم، ودين عليها، وكلام ملغز، وقضية كانت آخر ما نشرته، وطفل على يدها.

سأضع فروضًا

- متزوجة بغير رضاهم
- هاربة من شيء
- مختفية

نعم إنه المكان الذى عشقته دائمًا وتترك رسائلها إن لم تجدنى عندما كنا...!

«قصر المنيل» المهجورة، نعم... سأذهب وأبحث؛ لعلى أجد لها سبيلاً

كنا نجلس هناك أمامها.. تعشق بنيانها وأن ترى النيل أمامها دون أن يزعجها أحد ولا ترى متطفلى الحب على أعمدة إنارة النيل..

فهي كانت تدخل خلسة دون أن يراها أحد لباب خلفى وتصعد إلى الدور الثانى على الروف وتجلس به.. كنت أخاف وأنا داخل، صاحبها مات منذ زمن ولا وريث له وهى من أملاك الدولة الآن، ويوجد

نزاع من وقتها مع الآثار فعمر جدرانها يتعدى ١٥٨ عامًا .

أقرأ القرآن وأنا ادخل لأصعد لها . .

وأسمع طقطقة السلالم الخشبية وأشعر بأنها ستسقط بى .

إن لم أجدها تترك لى رسالة بالساعة الموضوعة فى البهو ، وتحدد موعد رجوعها بتحركة العقارب . كانت تحلم دائمًا بأن تأتى وتسكن هذا المكان . . لا أعلم إن كان مزاحًا أم صدقًا أم من الضيق الذى تحمله . .

وصلت إلى مقرها القديم .

أهلا يا عم محمود أخبارك .

مش فاكرنى ولا إيه .

■ مش واخد بالى يا بيه .

■ أنا عمر يا عم محمود . . الشلة الرباعية يا عمنا, كنا بنفطر عندك كل يوم, وبنعدى عليك مخصوص واحنا رايحين الكلية .

■ يووووه لسه كنت بفكر فيك والله .

أخبارك يا أستاذ عمر ولسه كنت فى سيرتك امبارح مع زمايلك . .

■ مين منهم؟؟

■ الأستاذة اللى كانت بتيجى معاكم هنا .

صمت لحظة وقلت:

■ رحمة تقصد؟!

■ أيون . . . امبارح كانت هنا بس أتغيرت خالص . .

■ جت إمتى امبارح؟

■ يا بيه يعنى عربيات الفول بتقف أمتي ، بس هى اتغيرت خالص كأنها كبرت عشرين سنة . . هى متجوزة ولا إيه يا أستاذ؟

■ والله ما اعرف يا حاج محمود . . متعرفش جت هنا ليه؟

تركت صاحب عربة الفول بعد كلامه الممزوج بالذكريات والمواجع . . لا أعلم حتى عمن يتحدث!

فتحت باب القصر وأحركه بصعوبة وخلفه أكوام من القمامة وأكوام من أوراق الشجر . . أسير وأنا حذر أخاف أن اتسخ وأن يلدغنى شيء .

نظرت إلى الساعة لعلى أجد جوابًا منها تركته لي ، افتح الباب الزجاجى المكسور وأجد «كوم» تراب ينهال على بذلتى . .

هل هو تراب أم الذكريات المنسية؟!

أشعلت القداحة لأصعد للدور الثانى . .

وقفت فى الشرفة . .

وانهمرت على ذكريات الماضى وانهال على سؤال الحاضر . . لماذا هي؟!

جلست مكان ما كنا نجلس به .

نظرت إلى النيل أشكو فقدان المؤنس . . .

الشرفة التى حضرنا بها وكأنها قاعة لمؤتمر لا يوجد به إلا أربعة :

أنا وهى ومصطفى وحسناء .

انظر إليه وأعاتبها لماذا لم تأت .

حديثك لم ينته وحياتنا نأمل ألا تنتهى إلا ونحن متشابكى القلوب .

تحبين الوحدة والترحال أخذتِ قلبى وتركتِني ، أخذت الحب معك . . سرقتِ أحلامى . .

عيناكِ باب للحلم والأمل .

سأنتظرك مهما طال الزمان . . أتنفس روحك ولا أطيق غيبتك .

وعدتنى وعدًا لا أعلم إن كنتِ تتذكرينه أم لا .

أن نظل ونظل حتى نفنى .

أغمضت عينى وأنا أحلم برؤيتها .

وسكن الليل . واستيقظت على صوت شجار بعض المارة وهم يسبون بعضهم بسبب كسر زجاج سيارة أحدهم .

نزلت مسرعًا . . أنير مصباح هاتفى .

خرجت من الباب الحديدى المرسوم عليه غزالتان وأغلقته مسرعًا وقلبى ينقبض كمن أغلق سطور رواية بنقطة . . وكلمة لسيناريو مجهول .

أوقفت التاكسى لأذهب لمنزلى ومرت الدقائق وأنا أضع رأسى على زجاج الشباك ويتحمل على النوم .

صعدت درج المنزل متعبًا منهكًا . . أبحث عن مفاتيحى . . لم أجدها فى جيوب الجاكت أو البنطال . .

اخبط كفًا على كف لقد نسيتها . .

بالتاكسى . لا لا أنى نسيتها فى قصر المنيل . .

فتح أخى الباب ولم أخلع حتى ملابسى ونمت بالحذاء ولم أبالِ بشيء .

استيقظت على اتصال محمود عدة مرات متتالية مزعجة . .

■ الوو . . إيه يا محمود

بصوت يملؤه النعاس:

■ إيه يا عمر نايم ولا إيه الساعة ٣ العصر .

أنا شوفتلك موضوع المحرقة .

■ إيه . . معاك معاك .

■ بص يا سيدى . .

فى تقليد بالديانة الهندوسية اسمها «ساتي» . . وده سبب لحرق الأرامل لأنفسهم بعد موت أزواجهم ، وهو اتوقف بقانون بالفعل من ٢٠٠ سنة لكن لسه آثاره موجودة وده بيكون أكتر فى

الطبقـات المهمشـة والفقيـرة، وبتكـون الطقـوس حـرق الأرملـة مـع زوجهـا . . لأن حسـب اعتقادهـم أن مصيرهـا المـوت مثلـه، أو أن تجبـر علـى الحـرق لضغـوط اجتماعيـة، أو هـى بتؤمـن بـه لاعتقادهـم أن الحـرق يجعلهـا أمـراة عفيفـة. وأغلـب الحضـارات القديمـة مارسـت التضحيـة بالبشـر، وارتبطـت هـذه الأضاحـى بالطقـوس الدينيـة ومعتقـدات مـا بعـد المـوت، مثلاً فـى مدينـة «أورو» اكتشـفوا عشـرات الهيـاكل بملابسـهم فـى المدافـن الملكيـة وقتلـوا بالسـم، أمـا حضـارة أمريـكا القديمـة فكانـوا مـن أوائـل الأمم مـن عـدد الأضاحـى البشـرية والتفـنن فـى قتلهـا وسـلخها وأكل أجـزاء منهـا، ولكـن فـى الهنـد التضحيـة بالمـرأة مـع زوجهـا عـادة قديمـة وقـرأت أن الرحالـة «ابـن بطوطـة» شـاهد بنفسـه أثنـاء زيارتـه للهنـد وأغمـى عليـه بسـبب سـوء المنظـر، ويعتقـدون أن المـرأة الصالحـة هـى مـن تلحـق بزوجهـا.

■ أنا مش فاهم قصدك . . إيه ربط الكلام ده بلفظ أولاد إبليس؟!

■ جايلك فى الكلام . .

بـص طريقـة كتابـة الـكلام ده معنـاه إنـه يقصـد بعـض التقاليـد فـى ديانـات وده حسـب فهمـى فـى الـكلام لأن هـو ربـط بكلامـه بينهـم . .

■ أنجز يا عمنا . . احنا هندخل فى نظريات.

■ هههه أنا غلطان . .

اللى أنا فهمته بقصد أولاد إبليس . . عبدة الشيطان أو طقوس سحر.

■ عبده الشيطان . . وسحر!!

■ آه لأن هو مفيش مفهوم تانى لأولاد إبليس إلا عبدة الشيطان.

■ امم، طب أنا برده مش فاهم حاجة خالص.

■ مـن مضمـون اللـى قولتـه إن هـو بيـدور علـى حاجـة معينـة، أو لـه طقـوس مشـتركة، أو يقصـد فعـل معـين بكلامـه أو رمـز، أصـل بـردو محـدش هيقـول كلام زى ده ويكـون مثـلاً هـزار أو ضحـك . . أو إشـارة أو رسـالة.

■ خليك متابع الموضوع لو ظهر حاجة قدامك جديدة.

■ متقلقش .

غسلت وجهى وتعجبت . . لماذا استيقظت فى هذا التوقيت وما كل هذا النوم ! !

أشعلت سيجارتي ، فدخلت أمى صارخة : إيه يا ابنى أنت ما اكلتش ، حرام عليك ، كل مرة توعدنى تبطل . . .

هجيبلك الأكل وابقى اعمل اللى تعمله .

■ اسمع كلام أمى ولا أعلم ماذا تقول ، فما تحدث عنه محمود أدخلنى فى خندق مظلم وأصبح الموضوع أكبر من تغيب أو ميراث . . .

ممكن أن يكون حسابها مسروقًا . . لعل حسابها مسروق .

الجوع غلبنى . . غيرت هذه البذلة المتسخة بتراب الذكريات وتوجهت للقصر لآخذ مفاتيحى .

صعدت على الدرج معتقدًا أنى سأجدها وأن الصدفة جعلتنى أن أترك مفاتيحى . . أدخل على الشرفة وكلى عشم أن أراها أمامى أو يمر طيفها .

التقطت مفاتيحى وخرجت من باب تلك الخرابة . . نعم خرابة ، فكيف يكون قصرًا - ولو كانت على النيل - دون أنفاس . . الحياة بلا ناس لا قيمة لها ، والقلب بلا حبيب فقد قدرته على النبض حتى ولو امتلئ بأحلى وأجمل الذكريات مثله ، مثل هذا المكان . . يتيم وإن كان يقدر بملايين ، فمن يؤنس جدرانه !

كعكس القاعدة . .

لا الذهب ولا الفضة يختاران من يتزين ومن يتحلى بهما .

فالصائغ فى ورشته لا يخصص عمله ولا مشغولاته لأحد . . وإنما هى سلعة كغيرها تنادى ذواقها ليشتريها .

فعلى كيل جراماتها يضحى بثروته من أجل جنيه .

نعم أنا المغفل الذى أسعى وراء ذكرى فمن الممكن أن أدخل لاختار ، العديد والعديد ولكن من يختار هذا الحب اللعين . .

ينادينى وأعشقه وسأظل . . .

أحببت أن أبنى قصة وأرويها . . كان كلامها صحيحًا فهى قصتى وهى حياتى أريد أن أكملها وأتفرد فى سردها بل أن أكون بطلاً لقصة لم يكن لها شبيه . . فهل أنا أحب أم أريد إثبات أنى أحب؟! أم هو ملء الفراغ .

الأيام ستثبت .

توجهت إلى منزلها لعلى أجد جديدًا أو أن أجدها أو عم أبو أحمد .

بطرقات على استحياء أخاف أن تخرج «أم أربعة وأربعين من الباب» . . .

■ مساء الخير يا حاج .

هاخد من وقتك نص ساعة وأتمنى نقعد تحت على القهوة .

■ استنانى تحت نازلك ومتعملش صوت .

■ حاضر .

وسمعت صوتًا أثناء نزولى مسرعًا .

مين اللى كان بيخبط .

ده واحد بيسأل على حد والعنوان طلع غلط .

أنا نازل هجيب الفينو .

ازيك يا حاج . . معلش أنا معرفش اسمك . .

■عيد . . اسمى عيد .

■ اتشرفت يا أستاذ عيد . . عايز اعرف رحمة فين . . أنت تعرف حاجات ومش عايز تتكلم ليه . . أنا خايف عليها .

■ شوف يا ابنى أنا لا بحب اللف ولا الدوران . . أنا ساكن هنا من التمانينات لما كنت شاب أبويا أخد الشقة دى ليا بالإيجار القديم .

كان الحاج سامى أبو رحمة ، الله يرحمه ، جاى معايا فى نفس الوقت وعرفنا بعض من وقتها ، كان

راجل محترم ونعم الناس مكافح وعصامى . . بنى نفسه بنفسه . . حفر فى الصخر زى ما بيقولوا . . اشتغل فى كل حاجة لحد أما جاتله فرصة إنه يشتغل فى الإعلانات وشاف أم سما أخت رحمة أبوها اللى دخله فى الإعلانات . .

وابتدوا حياتهم مع بعض وخلفوا اتنين سما ووليد . لحد أما الخلافات قامت بينهم واتجوز أم رحمة وقتها فى الشقة إللى فوقينا ماهى بتاعته بردو بس محدش عارف غيرى إنه كاتبها باسم رحمة عشان يأمنها .

وماتت أم رحمة وقتها وهى بتولدها وعشان البنت ميبقاش فى فرق بينها وبين إخواتها كتبها باسم مراته الأولانية وحتى عشان البنت متطلعش معقدة وانت عارف إن إزاى البنت أو الابن ميلاقيش أمه .

خلينا فى المفيد . .

البنت كبرت والست الله يسامحها كانت بتعاملها وكأنها جارية عندهم ، ضرب وإهانة وسب . . حست وهى من ابتدائى إن فى تمييز بينها وبين إخواتها . . يا أخى ده حتى السندوتشات كانت مبتعملهاش اللى كانت بتراعيها أم أحمد ربنا يجازيها .

طبعًا إخواتها كانوا عارفين إن هى مش شقيقتهم لحد ما فى يوم قامت بينهم خناقة وعلى ما أظن وهى فى ثانوى أخوها عايرها بإن هى مش شقيقتهم وكمان اتهمها بإنها بنت حرام . .

كانت بتحكى لأبوها وهو كان بيمشى الدنيا عشان هم إخوات مش عايزهم يخسروا بعض . .

رحمة اتغيرت من الوقت ده بقت إنسانة تانية غير اللى نعرفها . . وحيدة فعلاً حتى وإن كان أبوها بيحن عليها فهى بردو وحيدة ، أصل السند ده بيبقى من الكل وإن كان فى عطف فالقسوة اكتر .

شوية شوية سما ابتدت تقنع أبوها بإنه يديها فلوس أكتر من أخواتها عشان سى السيد جوزها وهو كان بيميزهم عن بعض فى الظاهر وفى الحقيقة كلهم زى بعض .

رحمة سلوكياتها اتغيرت . . مقصدش حاجة وحشة أعوذ بالله . . أنا أقصد أنها واحدة تانية غير اللى نعرفها . . وحيدة تعيسة دايمًا سرحانة بتحب الوحدة . . خلصت الجامعة وحبت إنها تنفصل عشان تشتغل فى المحاماة . .

واشتغلت مع كتير من المحامين عمرها ما استقرت مع حد نهائى وده فشل بينى وبينك . . والفشل ده سببه اللى حصلها .

من كتر الضغط اللى عليها اشترت شقة بالتقسيط وكانت بتتحجج الأول بإنها تستثمر الفلوس وطبعًا الديون تراكمت وأبوها بدأ يدفع الفلوس وقامت النار من هنا . . إزاى تشترى لها شقة . . والإخوات قطعوا بعض كلام . . وبالمعنى الأصح يمكن طردوها ويومها طلعت وقعدت على السلم هنا ودخلتها بالعافية لحد ما نفسيتها تهدا ، مكملتش عشر أيام ورجعت البيت بس كنت حاسس إنها بقت بشكل مختلف .

وكأنها تجاهلت إللى حصل من حد . . الابتسامة مفارقتش وشها من ساعتها ويتقال ليها كلام وكأنها مش سامعة . . كانت بدأت ترجع تانى للمحاماة وبدأت تعمل دراسات عليا فى مجال علم النفس . . أنا معرفش إيه ارتباطه بالمحاماة وسألتها ساعته . . حكت إنها من خلاله بتدرس شخصية المجرمين . . .

وعشان أبوها يريح الدنيا عمل إن هو أجر الشقة اللى فوق وقعدت فيها لوحدها .

كان بيجيلها عرسان كتير وكانت بترفض دايمًا وكأنها حابة الوحدة . . حبيت أقنعها كانت بتردد دايمًا : مش عايزة أظلم حد زى ما اتظلمت .

وابتدت فعلاً الشغل اللى ، لما فى مرة المكتب اللى شغالة فيه كلفها بمتابعة قضية فى محافظة بعيدة وتابعت القضية ومعرفتش توصل لنتيجة بس كانت جايبة ورق من هناك كتير ، ولما طلعت أطمن عليها فى يوم لاقيتها حاطة ورق كتير لمعادلات رياضية ورسوم ومثلثات وكان فى فلوس مكتوب عليها أرقام .

سألتها إيه الحاجات دى قالتلى دى تبع القضية اللى شغالة عليها .

وفى يوم تانى لاقيتها مولعة شمع كتير وورق شكله محروق وموجود كتب أكتر من اللى شفتها وحاجات تانى عفى عليها الزمن .

وابتدت متنزلش من البيت إلا لو هتجيب حاجة .

وعـدت الأيـام وسـمعنا صريـخ مـن فـوق، طلعـت لاقيتهـا مرميـة علـى الأرض وفـى ورق محـروق وزجـاج الشـباك متكسـر، فقومتهـا وصحيتهـا لاقيتهـا بتقولـى لاقيتـه لاقيتـه.

يا بنتى لاقيتى مين؟!

مردتـش.. ومفهمتـش كلامهـا الباقـى وحاولـت أسـاعدها.. جبتلهـا دكتـور قلـت يمكـن ده بسـبب مـوت أبوهـا.

طلـع معايـا وقعدنـا لحـد أمـا الدكتـور بـص فـى الكتـب صدفـة و قالـى.. إيـه ده «أعـوذ بـالله» دى كتـب سـحر اسـود، بقولـك يـا أسـتاذ عيـد اللـى بنتـك بتـدور فيـه ده غلـط، أنـا كنـت زمـان بحـب أبحـث فـى علـوم مـا وراء الطبيعـة واللـى بيدخـل فـى الطريـق ده مبيطلعـش منـه سـالم، الكتـب دى سـحر أسـود.

دخلـت علينـا وهـى لابسـة جلابيـة سـودا ولسـه هقولهـا اقعـدى يـا بنتى.. صرخـت وضربـت الراجـل ونـزل جرى فنزلـت وراه قـال لـى سـامحنى أنـا مـش هقـدر أسـاعدك أنـا بتـاع نفسـية وعصبيـة مـش بتـاع أعمـال.

مـر يـو مـان

فقـد يأسـت ومللـت، كنـت أجلـس علـى أحـد كافيهـات المقطـم وأضـع السـماعات فـى أذنـيّ.. وفجـاة أتذكرهـا.. وتأتـى أمامـى فتـاة بـورود وتقـول: ربنـا يقربلـك مـن تحـب، فأجابتنـى نفسـي: هـل أنـت تطلـب المسـتحيل وهـل طلبـك حـلالاً أم حرامًـا؟!

تذكـرت عـودة المحـارب منتصـرًا لأرضـه، والبحـار لسـفينته، فـإن لـم يعشـقها غـرق معهـا لعـدم إدراكـه طبيعـة أمـواج البحـار.

أهذا هو الحب؟!

إن لم تعرف مرادفه يصعب مناله، فالحب حرفان فقط ولكل حرف آلاف الأفئدة.

سـمعت صفيـرًا لحديثـى معهـا وهـى تضحـك عندمـا سـألتها عـن وحدتهـا.. بـكل ثقـة ضحكـت بضحكـة مليئـة بالغـرور «أنـت بتسـأل ليـه».

■ (خايف عليكِ) وجدتك غريبة شاردة، أرى شيئًا دائمًا يملأ ضحكتك.

■ أرى طيف أمى دائمًا.

■ ما حضرتك بتشوفيها فى البيت كل يوم ربنا يخليهالك .

■ الطيف محدش بيقدر يمنعه .

سكتنا . . وفجأة تنظر إليّ ، وهو حد سألك أنت بتحب القهوة ليه؟!!

■ أصل القهوة بتشيل أسرار وبتجيب أسرار .

■ أزاى بتجيب أسرار؟!

■ بتخلينى أفكر فى حبايبى زى طيفك كدة ، بس القهوة جمالها فى مرها ، زى ما بتسهرك ساعات بتفوقك .

تفكر فى الحياة من جديد وتنظر للحقيقة .

■ هههه . . طب ما انت مش باصص للحقيقة .

«باب الخوف»

مررت من باب الخوف، أسمع صريرًا لعله إنذار لكى أخرج . . افتح دفاترها لعلى أجد عنوانًا أو دليلاً .

أخاف أن أفتح شيئًا وأجن قبل أن أراكِ .

حريص فى قراءة ما كتبته بدموعك وسهرك أشم رائحتك فى مكانك هذا . .

الحوائط خائفة أن تلطخ بلعنة من لعنات كتبك هذه . . تخاف ألا يسكنها ساكن جديد . . فأنتِ تركتِها وحيدة حائرة . . عودى فإنها تنتظرك بعد غياب .

من قال إن البيوت لا تشعر . . فلماذا نشتاق لبيوتنا وهى أيضًا تشتاق لنا . . تكره الوحدة مثلى .

وبعد جدال زاد على ثلاث ساعات أحاول أن أفهم هذه الطلاسم . . لم أبرح بمكسب .

أفكر لعلى أجد من يساعدنى . . هذا الطبيب النفسي، لعله يساعدني؟!!

أرى كتابات بلون الدماء وردودًا بلون أزرق باهت مخيف .

سأنتظر هذا الطبيب .

عم عيد!

اطلبه . .

لعله يأتى وينقذنى من كتب الشيطان .

عايز أوصل لهذا الطبيب يا عم عيد . محدش هيقدر يساعدنا غيره .

بكرة هروحله وهييجى وهضغط عليه عشان العشرة إللى بينى وبين والده .

اتصلت بأحد أصدقائى بالشئون القانونية للبنك الدائن لها .

بعد مداولة ارتضى أن أصل لحل معه لأدفع دينها .

دبرت ٤٠ ألفًا ووضعتها فى خزينة البنك لإنقاذها من حكم بالحبس قد يصيبها . . أصور بطاقتى وأكتب إقرارًا لكى ادفع ما تبقى .

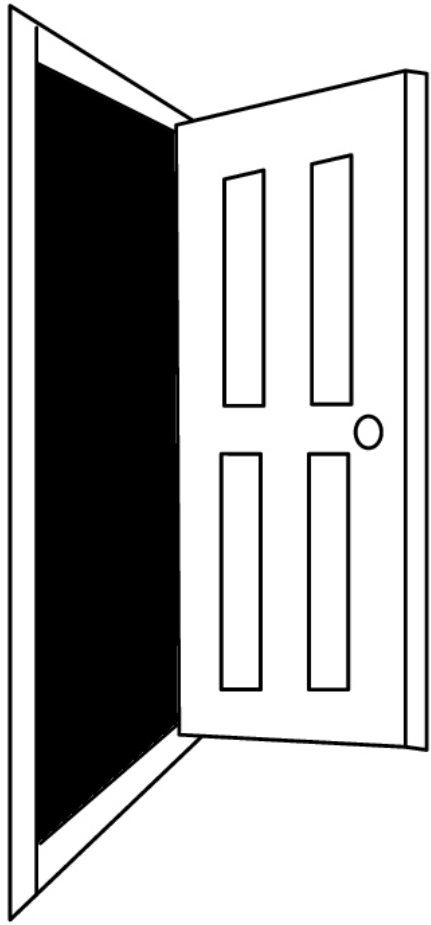

وبعد استلام هذا الإيصال شعرت وقتها بأنه كان ديني ، بل كان سكينًا على رقبتى .

سأدبر الـ «١٠ آلاف» الباقية لعلها ترفع من على كاهلها حاجة من ضمن الحوائج التى لا أعلم ثقلها .

وما زادنى حيرةً إخوتها . . هؤلاء الجهلة متحجرو القلوب . . مثرثرو الخلق يتباهون بالتعفف .

فحتى لو كان بينهم بحار من المشاكل . . كيف يخسرون دماءهم؟ وأين هم . . هل يريدون اختفاءها ليستولوا ميراثها .

أشفق عليها ممن معها فهى تهرب من حقائق .

لعلها بخير الآن استريحى . . سأرسل رسالة لعل قمرى يرسلها لكِ ويرسيها على مراسى قلبك .

هناك من يحبك . . تعالى أنا «ناقص» دونك . . معى نصف قلب . . أين هو . . هل محتفظة به أم لا ؟! فأنت تعلمين أنى لست من مجملى المواقف بل أتعامل على فطرتى . .

أخرجت من جيبى وقتها خاتمًا وضعته فى ورقة وأعطيته لكِ هدية . . نعم أحب أن أتعامل معك على راحتى وبلا قيود ، لم أتركك ترحلين إلا ومعكِ قلبى . . أخرجت مفاتيحى وفصلت هذا القلب لأهديكِ نصفه . .

هل مازال معكِ أم تركتِه؟

وحتى إن ضاع . . يكفينى أن ألقاكِ من جديد سيكتمل نصفه .

كنت رحالاً . . والآن أنا أقف بقاربك . . فأين مالكه؟!

سأنتظر انطلاق رحلتنا من جديد معكِ وبكِ .

عشقت السفر من أجلك وعشقت الوحدة لأجلك أريد أن أشعر بشعورك .

سألونى ذات يوم . . أأنت مراهق؟!

أجل . . من أجلها . . أرى عينيها أتوه . . وأسمع صوتها . . أدمع من الفرح وأسمع سيرتها يقتلنى البعد ! !

وإذا كان حبى هو مراهقة فهى لنفسى أعشها كل ساعة . . أحسها أختى وأمى التى معى دائمًا

وأخى الذى أبوح له بسرى . . انتظرها لتواسينى .

حاولت نسيانها لم أقدر ، محروم وأنظر على الفتارين لأرى اليد على اليد . . كادت الوحدة التى خلقها خيالى تقتل سيرتى . . قصتى مليئة بحكاوِ . . لا تبكِ !

أتأمل دائمًا . . وأطل على النجوم ، فما أجمل أن تسرح بنظرك وتشرح قلبك بصفاء السماء ، أخذ عينى وفكرى هذه النجوم الثلاثة . . مثلث هو أضلاعه متساوية ، يتوسط رأسه نجم يسمى الحب ويفرد ضلوعه لنا لنمد أيادينا له ونكمل سيرتنا معه ويعلونا هذا النجم ؛ ليكن رابطًا وتاجًا على رأس الملوك . . ومهما حدث يظل هذا التاج لينهى أى خلافات بصفة دوام الحب ، أما إن تخلى الأطراف عنه فينسحب بساط الود الذى يتذكره من يعيش معه . . إنه حب . . وما هى إلا علاقة ربط لوقت . . ومع كل بداية أو خلاف تنسحب الأضلع ؛ لأن نجمها الملكى كان أسفلها لا أوسطها ولا أعلاها . . فلا يظل الحب ولا يظل حتى الود .

قرع على الباب . . خطف أحلامى وأنهى رسالتى . . لعله الطبيب !

ـ اتفضل أزعجناك يا دكتور نعتذر .

أنا محامى رحمة وخطيبها ، ورحمة مختفية لدوقتى وحضرتك كنت شفتها وعارف حالتها كانت عاملة إزاى والحاج عيد قال لى إن حضرتك اكتشفت إنها كانت . . .

خطف الكلمة من على لساني:

ـ أعمال . .

أيوة وأنا حذرت الحاج .

أنا هساعدك على قد ما أقدر .

عايز أشوف الكتب ويمكن أعرف هى وصلت لإيه .

ينثر الورق ويفتح الكتب كتابًا تلو الآخر . .
وابحث معه لعلى أجد جديدًا أو دليلاً مختفيًا .
خلف هذا المكتب يوجد درج . .
به صور وكراريس . . أتفحصها
وهى مرتبة ترتيبًا لفصول العمر .
سأفتح آخرها . .

« كرسى الحصانة.. وأرواد النافذة »

داخل مكتبي، خلف الزجاج أرى المارة فى طرقة المكتب.. لا أعلم لماذا شغل بالى الكثير والكثير منذ أن تنصت على هذه المكالمة التى كانت نجاة لأصحاب هذه البلدة الفقيرة بالموارد، انتظر التكليف وكأنى أعلم أن العطاء سوف يرسى على من وسط عشرات المحامين العاملين بهذا المكتب.. ليس غرورًا، بل لأنه يرمى أصحاب القلوب شبه الجريئة فى المشاكل ليثبتوا كفاءتهم وكأنه يكافئهم بهذا التكليف رغم أنه لا يعطينا إلا حفنة من بعض القروش بين آلاف الملايين التى لا يسجلها فى دفاتر الضرائب، مر يومان وأنا انتظر نداءه على أو أن يهتز هذا الهاتف الذى بجانبى أو رسالة أو ساعى المكتب.

مرضت بالمرض المعتاد الذى تحتقن فيه أنفى وتزداد الكحة يومًا تلو الآخر وكأن هذا الفصل عقد معى اتفاقًا كل عام لأصاب بالزكام.

اعتذرت لمدير مكتبنا.. هذا المحامى غريب الأطوار الذى يشعل السجائر واحدة تلو الأخرى، فلم أدخل عليه فى يوم إلا وأجد الدخان بين أصابعه، فهو يليق بهيئته.. برأسه المحلوق بالموس وشاربه الكثيف الثقيل.. وبذلته السوداء.. وهذا البالطو المعلق بجواره ورائحته التى لا أعلم اسمها فمن الممكن أن أعلم صفتها من كثرة زكاوة رائحتها.

رد بكل غلظة

■ يومين ومتتأخريش فى مرضك ده.

لم يقل حتى ألف سلامة أو ما شابه، هيئته تتسم بالعنف والجرأة وكأنه هُيئ ليترافع عن الجنايات فقط.

مر اليومان.. استعد فى تحضير ملبسى للذهاب فى الصباح الباكر للسؤال عن قضية فى أحد دفاتر المحضرين بمحكمة بجوار المكتب.

كانت الساعة العاشرة مساءً وهاتف المنزل يرن..

لم يعتد أحد أن يتصل على فى هذا التوقيت، هل تعجب أحد لغيابي!!

إنها سلوى سكرتيرة المستشار..

■ ايوة

■ أستاذة رحمة الأستاذ بيقول لحضرتك عايزك فى المكتب الساعة ١٠ الصبح ومتتأخريش عن كده نهائى

■ فى حاجة؟

■ معنديش تفاصيل بس هو سأل عليكِ أكتر من مرة.. أكيد فى مشكلة أو موضوع ضرورى.

ضبطت المنبه على الساعة ٧ صباحًا وتناولت دوائى.. هذا المضاد الحيوى الذى يجعل جسدى هامدًا لا أستطيع حتى فتح عينى.

أعلق نظرى بهذا السقف وأفكر.. فيمَ سيحدثنى غدًا؟! هل فى موضوع البلدة أم فى موضوع قد اقترفته بخطأ وسيحاسبنى ويؤنبنى ويغرمني؟! ليس من عادته أن يأتى الصباح إلا إذا كان أمرًا مهمًا وخطيرًا أو لاستقبال أحد موكليه من كبار المسئولين ورجال الأعمال.

صوت هاتف يهتز ويرن بشكل غريب ومتكرر لم يفصل نهائيًا عن إعادة المحاولة لأرد.

وجدت أكثر من عشرين محاولة للاتصال منها مرتان من المستشار «علي»، والباقى من السكرتيرة.

ثنيت ظهرى مسرعة وهاتفت هذه السكرتيرة وأنا أحاول الاتصال.. وجدتها الحادية عشرة صباحًا.

■ انت فين يا أستاذة.. أستاذ على منتظر حضرتك من الساعة ٩

■ آسفة والله معرفتش اصحي، نص ساعة وهكون فى المكتب

اخترت الدور السابع بالأسانسير ودخلت مسرعة يملؤنى النعاس..

فتحت الباب لأجد أستاذ على ينفخ الدخان ويشخط بى وكأنى زوجته ونسيت أن أحضر له الفطور.

ابتسمت ببرود «آسفة يا أستاذ»

■ أنا واثق فى ذكائك وأعلم أنك محامية قادرة على تحمل المصاعب والمتاعب وسأختارك للذهاب

لقريتى ببنى سويف .

■ ليه يا أستاذ؟

■ فى مشكلة عويصة هناك والبلد هيحصل فيها فتنة محدش عارف إيه إللى بيحصل وأهل البلد كلمونى من أسبوع عشان أشوف حل للمشكلة وفجأة اتصلوا وقالولى القصر ولع بتاعي!

■ مش غريب يا أستاذ أن يتصلوا يستنجدوا بحضرتك وفجأة القصر يولع؟!

■ مهو أنا عايزك عشان كده، أهل البلد مش عارفينك؛ لأنى كنت باخد معايا ناس هنا من المكتب فعارفين شكلهم وانت غريبة ومش هيصدقوا أن فى محامية هتروح هناك أو هبعت محامية .

■ هروح بصفتى إيه؟!

■ عادى محامية بتشق طريقها وهتفتح مكتب للمحاماة، أنا هديكى مفتاح شقة بتاعتنا جانب المركز ومحدش عارف أن هى بتاعة العيلة أساسًا .

وهحولك فلوس طالما أنت محتاجة، أهم شيء نشوف حل؛ لأن ممكن يكون ده حرق لى فى الدائرة عشان منزلش انتخابات!

■ بس هو فى حد هيقتل عشان يحرق حد ويحرمه من نزول الانتخابات؟!

نظر لى نظرة مكر فقد زل لسانى عما أعلمه! ولم يستغرب نهائيًا وكأنه يعلم أنى قد تنصت عليه.

■ ممكن يا رحمة، المهم نحل المشكلة عشان نرجع للبلد هدوءها وعشان يرجع مركز المرشح زى ما كان، مهو مينفعش يستنجدوا بيه ويسيبهم، وغير كدة اتصلت بكام مسئول محدش فادنى .

■ هقدر أسافر من أمتي؟!

■ من النهاردة لو مستعدة .

نزلت من المكتب على الدرج وأفكر فى صمت تام ماذا سأفعل فهو يلقى على مهمة وهو شخصيًا خائف وقد بلور المشكلة وكأنها معركة انتخابية على كرسى الحصانة .

حضرت حقيبتى وطلبت من السائق الخاص بأستاذ على أن يحضر معى للذهاب والعودة بسهولة

وليس بكل تأكيد بسيارته الفارهة.

فقد استأجر سيارة «بيجو».. هذه السيارة التى تليق بالسفر الشاق والمشهورة بالبساطة.

لم نسأل طيلة الطريق عن هذه القرية إلا ونحن مشرفون عليها وكأننا غريبان عن المكان ونبحث عن شقة لأرث أبى.

دلنا الكثير والكثير على العمارة التى أمام مركز الشرطة ووجدناها بسهولة وصعدنا هذه العمارة حديثة البناء.

طلبت من عم فرج السائق أن يطبع لى لافتة يكتب عليها مكتب للمحاماة وبالطبع اسمى يدون عليها وسوف نعلقها.

الشقة مليئة بالتراب بل يكاد يملؤها الحشرات وبراز الفئران.

فتحت الشباك وكأن النور قد اشتاق لهذه الشقة منذ زمن وبشعاع نور الشمس يظهر «العفار» والتراب وكأنها أرواح تخرج من النافذة.

تعجب الجميع من صعودى لهذه الشقة المطلة على مركز الشرطة وأماكن حيوية كثيرة.. وكان جيرانى أطباء ومعامل للتحليل وشركات، أسميتها العمارة شبه التجارية.

وجدت أحد قاطنيها قد صعد لى متسائلاً من أنا، فابتسمت بكل سرور وأوضحت له مهنتي، فطلب بكل جرأة أن يطلع على عقد الشقة ليتأكد أنها ملكًا لي؛ لأنهم لم يروا أحدًا يسكنها قط.

بالطبع لم يفت هذا الموقف فكر الأستاذ، فقد أحضر أوراق بيع للشقة ومعها توكيل باسم والدى وباسمى.

ومقابل هذا جعلنى أوقع على وصل أمانة قدره ٢٥٠ ألف جنيه أمانًا للشقة، وهو يضحك ويبتسم: لو خلصتى القضية دى هديكى ٣٠٠ ألف وفوقيهم الوصل.

لا يهمنى هذا المبلغ ولكن يفرق معى «البداية الجديدة» والأهم أن أقوم بمغامرة صعبة تعلمنى معنى المحاماة والأكثر تدقيقًا لغويًا أن أحقق.. فى ماذا.. لا أعلم إلى الآن!

بدأنا فى تعليق اللافتة ولم يمر يوم إلا ووجدت أحد أمناء المركز يرحب بى ويتعرف علىّ، لم

أبادره الترحاب بهذا الشغف ورحبت به ترحاب الموكل الذى يسعى لميراث قدره ألف جنيه.

هيأنا المكان ورجعنا أنا وعم فرج إلى القاهرة، لأشرح لمديرى وموكلى سيادة المستشار ما حدث بقضيته التى بلا جديد.

فطلب منا أن نجلس بالقرية طيلة الشهر لعل حادثة جديدة تحدث.

لم يخل المكتب الجديد من القضايا بل امتلأ بقضايا صحة التوقيع والإرث.. طلبت محاميًا شابًا حديث التخرج ليباشر هذه القضايا.

عم فرج كان ينام بالمكتب على هذا الكنب.. وقد استأجرت شقة بالدور الأرضى بالعمارة المجاورة كسكن لى.

بكل تأكيد كان الكل فى غربة وحيرة لا أعلم لماذا.. هل هى مشكلة لرفض العادات لعمل المرأة؟ أم لوحدتى هذه؟!

الساعة العاشرة مساءً وأنا أطل من نافذة المكتب لأشاهد امرأة فى أواخر عقدها الرابع تصرخ: بنتى هتموت يا بيه وهى تعفر وجهها بتراب وتصرخ لنجدتها، فخرج الرائد «تامر» رئيس المباحث مسرعًا وهو يحملها من على الأرض وطلب «كرسي» لتجلس عليه.

انتهزت الفرصة ونزلت مسرعة لأعمل على مهمتى التى اغترب من أجلها، فلديّ يقين أن هذه المصيبة بسبب ما جئت لأجله.

وحتى وإن كانت عكس ما أتوقع فهى كفيلة بأن أباشر عملى وأصنع شهرة عند أهالى القرية.

فقد أمر أستاذ على سائقه أن يحكى لى عما حدث بالتفصيل، وعن عائلات القرية وكأنى أنا من سأرشح نفسى بالدائرة.

نزلت مسرعة ومعى هذا المحامى الشاب والسائق، ودخلت لـ «الاستيفة» لأجد هذه السيدة الباكية منتظرة، سألتها: ما بكِ.. شرحت لى أن عم أولادها قد أخذ ابنتها لديه خوفًا عليها من الفتنة فهى فى الإعدادية وهى تخاف عليها من غلظته فى المعاملة.

تشجعت لأن أباشر القضية وحدثتها عن حقوق المرأة والحضانة وخلافه وشرعت فى تشجيعها

لعمل المحضر ونأخذ الإجراءات ليعرض على النيابة، هنا اختطاف قاصر وليس اقتناء وحضانة كما يدعي، حتى وإن كان حسن النية، تدخل الكثير لنقف عن الشروع بكتابة المحضر ولكن أصررت لأنى أعلم أن هذا الموقف سيتكرر مع هذه السيدة طالما تخاذلت عن أخذ حقها، فما خلق القانون إلا لحماية الضعيف والقوى والفقير والغنى..

بكاء هذه السيدة علمنى معنى الأمومة واشتقت لأحضان أمى التى لم أرها حتى وإن كانت وهمًا وخيلات لصور أصطنعها بأحلامى.

وبعد تدخل الكثير اتفقنا على حل عقلاني، تم عمل محضر لإثبات حالة والتعهد بداخله.

وقتها اشتهر صيتى ولكن بشكل عكسى أنى أكسر عادة لبيت العزوة.. فخطر على ذهنى وأنا أضحك تخيل لهذا الموقف.. أنه قد يتم حرق بيتى وأنا بنعاس ولا أعلم ماذا أفعل، من الممكن أن يكون إصرارى ليس لاستكمال المهمة التى جئت من أجلها، بل رفعة لدور المرأة وتقديرها.

مادامت السيدة قد احترمت عرضها وعرض أطفالها، فلا يمسها أحد وهى لم تسئ لحياتها المهنية بأمومتها.

« صاحب الجلباب الأبيض »

وتوالت الأيام وأنا أطل من خلف زجاج المكتب وأتصبب عرقًا لا أعلم لماذا، مع أن الجو بارد وتمتلئ الشوارع بالطين لكثرة هذه السيول فى أراض لم ترصف إلى الآن ولا توجد حتى مصارف أو بالوعات.

مر شهر ولم يحدث جديد ولم يجد جديد لحديث بين الناس، فقررت النزول للقاهرة والعودة.

جهزت ما أملك من مقتنيات مهمة وطلبت من عم فرج أن نسافر باكرًا لنصل على الظهيرة وعزمنا على هذا، فهو اشتاق لأولاده.

حضرت ملابسى وانتظرته لينزل أمام السيارة، طلبته كثيرًا فلم يرد فصعدت للمكتب، فتح لى وكله نعاس أصابه أرق اشتياق منزله، أسمع أصوات سارينة النجدة لسيارات الشرطة وأرى سيارة إسعاف تتعقبها والساعة لم تتعد السادسة والنصف بعد الفجر.

تعجبت بشدة ماذا يحدث فى هذا التوقيت، من الممكن أن يكون قد أصيب أحد بمكروه من القسم أو الحجز.

فتحنا أبواب السيارة وبدأ بتطويقها وتسخينها استعدادًا للسفر.

من خلفى أناس تجري، طلبت منه أن يسرع بالسيارة لنرى ماذا يحدث.

خلف الترعة.. مصرف القاذورات والأمراض والبكتيريا..

بين أفرع البرسيم جثة ملقاة على جانبها.

دخلت عليها لأراها.. قطع نظرى هذا الطبيب المغطاة يداه بالطين من كثرة الوحل، وهو يفتح أعينها، اقتربت كثيرًا لأرى نظرة لم أنسها وكأن أعينها يملؤها البياض ويدب فيها الروح من كثرة الفزع الذى رأته.

إذنها المقطوعة والكتابات المحفورة بنغز الدبابيس، وكأن من فعل هذا كان يقصد قتلاً وتعذيبًا وليس قطعًا للأذان أو سلخًا لجلد كفوفها فقط.. ماتت من كثرة التعذيب.

وهو متأكد أنه لا حياة لها، غطى وجهها بقماش أبيض. ويا ويلاه على بكاء أبيها.. هذا الرجل العجوز الذى لا حول له ولا قوة.

وانقلبت القرية برماد من الحزن والغضب الصامت الذى غزاها.. حتى ملعب الكرة كان صامتًا ليلاً ليس به فرحة الشباب.

هل الكل خائف من النزول أو الحديث؟!

الأنوار الخافتة بالشوارع وكأننا فى أوائل القرن العشرين.

حالة من الدهشة أراها فى وحدة الشارع، وهناك شخص يرتدى جلبابًا وفوقه عباءة ويمسك بيده فانوس جاز ليضيء وحدته أمام هذا الظلام. ماذا يفعل هناك؟! هل ينتظر حبيبته؟! أم قُتل له أحد ويندب حظه؟!

لم يعجبنى هذه العطلة المخيفة التى حاصرتني، بدأت أشعر بالقلق والعجز عن المعرفة.

طلبت من سامح المحامى بالمكتب أن يأتى لى بأحد من أفراد عائلة هذه الفتاة.

فشلت محاولاته ولم أيأس.. طرقت الباب ومعى فريقى..

السلام عليكم.. والبقاء والدوام لله

لم أجد ردًا إلا «شكر الله سعيكم».

■ يا عم الحاج إيه إللى حصل، عايزة أساعدكم لوجه الله، مش هاخد منكم حاجة، أحنا أهل...

ده حتى أنتم معملتوش عزاء فى المضيفة.

■ يا بنتى إللى حصل حصل، عند الله كل شيء... استعوضنا الله.

■ ونعم بالله، بس دى جريمة قتل مش موت طبيعي، حتى مش غرق فى الترعة، ولا حتى قتل بسبب سرقة.

القتل ده اتكرر زى ما شرحلى ابن بلدكم سامح، لازم نبص للمشكلة عشان نحلها، هنفضل خايفين وخافيين الحقيقة، هيحصل كده كل يوم.

والقسم عمل اللى عليه وعمل المحضر بالفعل، لكن الجانى مجهول والطب الشرعى مش لاقى سبب إلا إنه آثار تعذيب وجروح بآلات غريبة ومجهولة.

■ يا بنتى الموضوع غريب!! فجأة لقينا البلد مقلوبة من كام شهر والله متعجبين من اللى بيحصل، مش عارفين إيه السبب. الموضوع مش اختيار لبنات معينة، مات واتقتل ناس كتير عدوا السبعة لحد دلوقتى ومفيش أى سبب للقتل وبيختار أى عمر وأى سن، حسبنا الله ونعم الوكيل.

شوفى يا بنتى أنا هحكيلك عن حاجة ممكن تكون سبب اللى بيحصل ده، احنا الحمد لله مؤمنين بيه.. بسطاء ملناش فى الحرام، والسحر أصله كفر بالله، اتصابت بلدنا من كام سنة بواحد ابن حرام كان أبوه مطرود من زمان كان بتاع أعمال، أهل البلد شافوه وهو بيسرق الترب وبيحفر فيها.

ساعتها طردنا أبوه والموضوع مات من زمان، فى ناس ضعيفة كانت مؤمنة بالكلام ده، لكن طردوه عشان هتحصل فتن ونخش فى مشاكل ومش ناقصين خراب عقول ما كفاية المرض إللى أحنا فيه، كان عايز يمرضنا ويهز إيمانا.

لحد ما جه ابنه زار البلد، من سنين ما سمعناش عن أبوه أى حاجة، منعرفش حتى اندفن فين أو لسه عايش.

بس ابنه جه فتح بيته وقعد فيه، محدش يعرف اللى كان بيعمله أبوه إلا ناس معينة فى البلد لأن كنا صغار ساعتها وأهالينا هم إللى طردوه.. ابنه جه وقعد ومعملش مشاكل فى الأول، وفجأة لاقينا الناس بتزوره من بلاد تانية، قولنا يمكن أهله.. أقاربه، بس الرجل زادت والأشكال متغيرة يوم عن يوم، أتاريه ورث عن أبوه اسمه وعمله.

راح العمدة ليه وقاله يا ابنى حرام اللى بتعمله ده، كفاياك.. عيش حلال هتموت حلال.

العمدة سألناه بعد كده مردش علينا وشايفه كل يوم بيعمل اللى بيعمله ونروحله وميردش علينا إلا بـ«ربنا يستر على بلدنا ويقولنا هينتقم هينتقم».

لحد ما أهل البلد فى ناس منهم راحوا برجليهم ليه والناس دى اتغيرت من وقتها وشوشهم اتغيرت واغتنوا فجأة ويمكن منشوفهمش إلا فى سواد الليل، ولو أوصفلك هما إزاى بيوصفوا حبهم

ليه يمكن بيحبوه أكتر من أهلهم وعيالهم.

فى يوم لاقيناه دخل الجامع.. قولنا ربنا هداه، بس وشه كان محروق من اللى بيعمله.. جه علينا العيد الصغير ويوم العيد الصبح كان بيوزع فلوس على الناس وكاتب عليها كلام.. كلام مش مفهوم وغريب.. العيال الصغيرة يا هانم ميهمهاش تاخد الفلوس من مين، المهم انها فلوس، حال الفقر والفقرة.

كان كل أما يدخل أى بيت الفلوس تحصل مشاكل ولازم تحصل مصيبة للى ياخد الفلوس.

حتى الشيخ حسن خاف يتكلم معاه.

إلا لما جت قصة الآثار فى البلد، أتاريه كان بيجيب الناس إللى بيقول تحت بيتهم كنز متخبى وبيجوا من بلاد بعيدة، ونلاقيه فى البلد بالليل بيجرى لوحده ويرسم بالرمل حاجات غريبة على الأرض، وأما قصة الفلوس دى مش بتتصرف ولا بنجيب حاجة عاملة زى وقف الحال متعانة، ممكن نجسة شبهه.

واختفى.. اختفى الساحر وعدى شهور ومحدش سمع حاجة عنه.. فى ناس قالوا إنه مات وفى ناس قالوا عمله اتقلب عليه، وفى اللى قالك شافه فى بلد تانية عايش.

بس فى ناس كانت بتشوفه بالليل على الترعة وماسك فى إيديه لمبة جاز.

■ ممكن أشوف فلوس من اللى كان بيوزعها؟!

■ حاضر يا بنتى

أخذت العملة الورقية التى هى خمس جنيهات، وذهبت أنا والسائق للقاهرة وحدثت أشياء غريبة طيلة الطريق..

انفجر إطار السيارة وأصلحناه ولم نتخط بعض الكيلو مترات وانفجرت نفس الجهة وكأن الطريق مُصِر أن يقلب السيارة بنا.

ونحن على بوابات القاهرة نفدت مياه السيارة وصعد بخار الماء لسخونة الماء رغم أننا فى فصل الشتاء.

تعجب عم فرج لأنه اعتاد أن يكشف ما بالسيارة يوميًا فهو متمرس على هذه المهمة.

صعدت لمنزلى وأرحت جسدى على سريرى الذى اشتقت إليه وكأنى تركت الذكريات بداخل شقتى وهربت.

أتأمل فى هذه الكتابة المدونة على الورقة النقدية لعلى أفهم شيئًا، رموز غريبة من أشرطة وحروف عربية وكسرات وهمزات ودوائر صغيرة وكأنه متمكن بالرسم.

«إن أرقى وظائف العقل هى محاولته الدائبة لربط الظواهر حوله فى علاقات منسقة لاستنباط القوانين الخافية وراءها ولمعرفة النظام الكامن فى الأشياء واكتشاف السبب والعلة والمعنى . . فى كلمة واحدة، الفهم . أن يفهم معنى كل هذا . . » .

كتاب: لغز الحياة
للراحل الدكتور مصطفى محمود.

فكرة: رقية الجمال

« محامية فى بلاد السحر»

فى أحد محلات الدقى هناك بائع روبابيكيا اعتدت أن أقتنى منه الكتب القيمة دائمًا ، فكانت هوايتى الذهاب إليه من الجامعة سيرًا .

أضع العملة فى كيس بلاستيكى وكأنه حرز ، أشعر داخل المترو باختناق وكأنى أذهب لمصير آخر وأبحث عن مجهول غريب علىّ .

فهل تركتُ أعمال المحاماة وأصبحت من هواة المتاعب؟!

اقتربت من عم محمد . . هذا الرجل العجوز الذى يعمل معه عشرات الصبية على دراجات لكى يشتروا العملات النادرة أو الأنتيكات أو أى شيء ثمين لكى يبيعه لمن يعرف قيمته .

دخلت عليه فهو يتذكرني ، ليس باسمى ولكن شكلى مؤلوفًا له .

■ اتفضلى . .

■ يزيد فضلك ، أنا عايزة أوريك حاجة يا عمي ، عارفة إنك غاوى عملات وكتب قديمة . كنت عايزاك تفيدنى . .

■ آه طبعًا وماله .

أخرجت الكيس البلاستيكى وهو ينظر فى عجب ليراها خمسة جنيهات حديثة ، ينظر إلىّ فى دهشة مستنكرًا ما أفعل .

قطعت نظراته .

يا عم محمد أنا عارفة إنها جديدة وملهاش قيمة كتذكار إلا إنها خمسة جنيه جديدة عادية ، أنا عايزاك تشوف اللى مكتوب عليها .

عدلت له وجه العملة المكتوب عليه ، أخرج نظارته من جيب القميص ، وعدل جسمه مسرعًا وهو يتفحص العملة .

قربها على عدسة عينه ، ثم أبعدها قليلاً وسحبها مسرعًا وحرك ذراعه وأمدها لى .

■ جبتيها منين دى يا بنتي؟؟ إيه يدخلك فى حاجة زى دي، أنت متعلمة.. أنت شغالة إيه؟

■ محامية يا عم محمد والفلوس اللى فى إيدك دي، خيط فى قضية شغالة عليها.

■ يا بنتى اللى مكتوب عليها ده سحر، ومش أى سحر ومال السحر بالقضايا.. أنا راجل عجوز والشيبة اللى ف راسى مش من قليل.. أصل ورد على كتب شعرى شاب منها، كتب سودا، فيها حاجات لأعمال مميتة وتخلى الواحد يكفر بالله، يا بنتى أنا مش جاهل أنا خريج فنون جميلة، أصلى وارث المهنة من أبويا.. أبويا عنده كتب فى ناس بتدور عليها بملايين.. وكان موصينى مديهاش لحد وأسلمها لمكان أمين بس خاف فى آخر أيامه إن حد يسرقها ويبيعها ويستخدموها غلط.

■ طب أنا محتاجة تساعدنى فى الموضوع ده وصلنى بالمعنى المكتوب.

■ هساعدك على موتك يا بنتي، ده طريق موت واللى كاتب الكلام ده مش هاوى أو مبتدئ، لازم تتأذى لو مشيتى فى طريقك.

■ فى ناس بتموت كل يوم بسبب الكلام اللى مكتوب.

تركنى أحدث نفسي، وعرضت عليه المال وهو أيضًا صامت لم يرد على إلى أن رميت عليه السلام ورد بكل ود، آنستِ ونورتِ كان نفسى أفيدك بس أنا كده هضرك بطلبك.

كالعادة نمت وفى يدى ورقة الطلاسم، حلم مفزع فى وسط نار ومعى هذه العملة بيدى. لا يوجد بجانبى شيء إلا ظلام والنار تحيطنى ويدى لا تتحرك وكأنى سأسلمها لأحدهم.

ارتويت من ظمأ وكأن هذا الحلم لهبه جعلنى أتصبب عرقًا من أنحاء جسدى.

هذا العرق الغريب الذى أصابنى منذ بداية سفرى.

يئست أن أصل لشيء ولا أعرف الذى أسعى إليه. قررت أن أكتب كل حدث منذ سفرى كعادتى وسميتها «مذكرات محامية فى بلاد السحر».

ظللت أشرح يومًا تلو الآخر كل تفصيلة وتفصيلة لعلى أجد ما أربط به هذه الأحداث ببعضها عسى أن أصل لنتيجة ما.

ورقة بيضاء دونت بها أهم ما حدث لأهل هذه البلد وما حدث معى وما حدث مع أستاذى وما

قاله بائع الكتب وما قيل عن قلق العمدة من انتقام ما .

قطع كتابتى وتفكيرى فجأة الهاتف المزعج . .

- من؟

- سامح من مكتب بنى سويف ، «يا أستاذة فى جثة جديدة بس لطفل ميت بنفس الطريقة» .

وفى الآن نفسه باب شقتى عليه صوت عال ينادى . . إنها أختى . . لعله خير؟!

■ إيه مش هنخلص تقسيم الورث ولا أنت مبسوطة من برتعتك فى فلوسنا .

■ اعملوا اللى تعملوه ، شوفى عايزانى إمتى .

خرجت من منزلى متجهمة لا ذوق لديها ، لم تسألنى حتى أين كنت ، أرى همهم الوحيد جنى المال .

حاولت مرة أخرى أن أذهب للحاج محمد صاحب محل المقتنيات الثمينة الغالية راودتنى طيلة الطريق فكرة أننى سأرجع منكسة الرأس .

استعطفته وشرحت له ما حدث فى هذه البلدة .

■ يا بنتى أنا نصحتك لله ، هدلك على حد ليه فى بيع الكتب اللى فيها حاجات الشيطان؟! مش هقدر أساعدك ومش عايز أضرك . بس ده اختيارك .

شرح لى المكان ، ووصفه وصفًا دقيقًا على ورقة قديمة وكتب لى اسم صاحب سيارة الكتب ورقم هاتفه .

اتصلت على هذا الرجل قبل ذهابى وسأل من أين أتيت برقم هاتفه ، اتفق معى أن آتى له فى سوق الجمعة الساعة ٨ صباحًا داخل أحد ممرات الترب بالسيدة عائشة ، هذا السوق الذى به كل شيء .

اتفقت مع فرج لنستعد بعد غد للذهاب لهذا الرجل ، جهزت ألف جنيه بحقيبتى فلن يزيد ثمن هذه الكتب على ذلك .

مر يومى هذا وأنا أدون ما حدث ، ونمت وعقلى متيقظ . . ماذا سأجد فى هذه الكتب؟! وهل سأجدها أم لا؟ جهزت فطورى ودقت الساعة السابعة وركبنا السيارة وتوجهنا لطريق سوق الجمعة ،

لـم يكـن مـن السـهل الوصـول مـن بدايـة الطريـق . . فقـد ذهبنـا مـن طريـق آخـر يبعـد كثيـرًا عـن شـرح عـم محمـد .

وصلنـا متأخريـن قليـلاً وأنـا أرى العشـوائية وتشـابك السـيارات داخـل هـذا السـوق وهـذه الماكينـة الغريبـة المسـماة بالتوكتـوك وإزعـاج مـن شـجار ، وهنـا مـن يقـف أيضًـا مسـتعدًا للتشـاجر لغـرض السـرقة وهنـاك أصـوات البسـطاء البائعـين لـكل مـا تشـتهى نفسـك وعينـك وأصـوات بائعـين كثـر .

شـعرت بأنـى فـى سـنتر بـه كل مـا تتمنـاه ولكـن بشـكل رديء الصنـع أو مهلهـل أو مسـتعمل أو مفقـود . ينهـال البعـض بالاسـتغلال علـى الهـواة الذيـن يحبـون اقتنـاء الأشـياء . ففـى هـذه الأماكـن يظهـر النصابـون وأصحـاب الـذمم الخربـة فيجـب أن تكـون صاحـب بصيـرة كـى لا يضحـك عليـك أو بمعنـى آخـر «ينصـب لـك فـخ» بسـبب حسـن نيتـك .

دخلنـا علـى صاحـب السـيارة البيضـاء التـى يفـرش عليهـا كتبًـا مـن أولهـا لآخرهـا ويضـع الصناديـق أمامهـا .

بعـد التعـارف وشـرحى لـه حديثـى الـذى طـال منـذ يومـين فلـم يتذكـر شـيئًا . . تقريبًـا لأن زبائنـه كثـر ، طلبـت منـه أن يـرى مـا دون بالعملـة ويأتـى لـى بالكتـب المفسـرة لمـا كتـب .

■ الكتـب غاليـة أوى يـا مـدام . ومـش موجـودة بـس هجيبهالـك؟! أنـا معايـا كتـاب مـش مـع حـد خالـص بـس ناقـص ليـه أجـزاء .

يتحـدث معنـا وهـو يرفـع دواسـة راكـب البـاب الأيمـن ويخـرج ظـرف ويضحـك.

■ والباقي؟!

■ ممكن اجيبهملك يوم الأحد؟!

■ أنا محتاجاهم بكرة

■ ميهمش ، قدام فى فلوس . . بس هنزود شوية فلوس ، هاتى ٥٠٠ جنيه تمن الكتاب .

■ ٥٠٠ جنيه؟! ليه؟!

■ أمال أنت فاكرة إيه .

عددت خمس ورقات وسلمتها له ووضعت عليها ٢٠٠ جنيه أخرى ليرى أن الموضوع ليس هزلا وليس اقتناء فقط ، كنت أعلم انه مستغل بضحكته المليئة بفراغ الأسنان .

■ عم فرج هيقابلك بكرة .

■ عيني ، هيكون عند سور مجرى العيون الساعة ١١ الصبح .

ولا حديث لعم فرج كعادته ، فهو لا يظهر عليه أحاديث فى الفرح أو الحزن ، وإنما صامت دائمًا .

طلبت منه ألا يتأخر على هذا الرجل وأعطيته المال المطلوب .

«لن يطفو فوق الماء»

جلست على مكتبى وأضأت نورًا خافتًا وكأنى فى مرحلة الليسانس كما كنت من سنين.

ورقه مثل المحروق، شديد الصفار ومتهالك.. عنوانه «الطقوس».. رفعت حاجبى مستغربة من هذا الاسم.

مخيف من قلة صفحاته ومخيف من مسماه ومخيف من ثمنه، فكرت ألا افتح هذا الكتاب عدة مرات، شعرت بحماسة أن أبحث عن مجهول وأبحث عن صاحب هذا الجلباب ذى الفانوس المشتعل.

فتحت أبواب هذا الكتاب، بابًا تلو الآخر ومع خوفى هذا..

يتخبط الهواء بشدة فى نوافذ الشقة.. كنت خائفة، بل مرعوبة لعلى قرأت شيئًا خطأ.

أفتح النافذة التى فى خلفي، يدخل هواء شديد وأمطار أكثر غزارة.

اطمئنيت قليلاً.. إنها حالة عامة لسوء الجو.

«جلب الحبيب، جلب شيء مفقود منك...»

قرأت عناوين الأبواب، لم أجد شيئًا، إنه كتاب للهواة وليس للأعمال ولعله كتاب لشق طريق السحر.

لم يهمنى أن أكمل القراءة فلست مهتمة ولن يضيف لى شيئًا، بل سينقص إيمانى.

إنها الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

لم يأتنى النعاس أبدًا، توسلت، أطفأت جميع المصابيح المشتعلة وغيرت مكان نومى لغرفة أخرى، ولم يفلح أى شيء.

فتحت التلفاز لعلى أنام أمامه كأيام مراهقتي!!

برنامج العلم والإيمان للدكتور مصطفى محمود... لا أتذكر النص تفصيلاً.

(هناك شيء مشترك فى الموروثات الشعبية فى جميع البلاد وهى مسألة العفاريت والجن والسحرة، مثل أوروبا «دراكولا» وعندنا فى الشرق مثل «ألف ليلية وليلة»...

وإن القرآن أكد لنا ألا أحد يضر إلا بإذن الله وأن الملاذ بالله وحده وأن الله مستغنٍ عن الوسائط، ولا نهتم بهم ونعترف أن السحرة موجودون بالفعل ولكن لا وساطة بينك وبين الله.

العفاريت موجودة بالفعل، والقرآن وجهنا بأن لا نقصد ما ليس لك به علم، ولا تسير فى هذا الطريق لأنك لا تراه؟! لأنه خطر جدًا.

ابعد عن هذه الأشياء نهائيًا ونهاية السحرة سيئة «الجنون والطرش الفقر والجوع» هى نهايتهم).

استيقظت وأنا أعيد سماع الكلام فى ذهنى.. اطمأنت نفسى إلى أن نهاية هذا الساحر هى الفقر والجوع وأن نهايته قريبة لا محالة.. حتى وإن طالت أحداثه وأفعاله السيئة والشريرة.

الساعة الواحدة ظهرًا ولم «يرن» عليّ فرج، قلقت ولكن سأنتظر، فلن يقلقنى شيء، فالقلق سيشيب رأسى وسيهزمنى هذا الساحر وهو بعيد عني، بخوفى هذا.

■ أيوة يا أستاذة أنا جاى لحضرتك فى الطريق.

■ مستنياك.

مكالمتى لفرج لم تتعد الثواني، لم أكن قلقة عليه شخصيًا بل قلقة على ما كلفته به، خشيت أن نقع فى فخ نصب لبائع دجل، ليس خوفًا على المال، بل لإهدار الوقت.

■ أيوة أنا فرج.

■ حاضر حاضر..

دخل وهو متعب ويحمل كتبًا ملفوفة بورق جرائد ومربوطة بحبال.

■ معلش يا أستاذة اتأخرت شوية.

■ إيه إللى حصل فى إيه؟!

■ الراجل قعدت مستنيه ساعات عند مجرى العيون وافتكرته مش هيجى لأنه كان مش بيرد على التليفون.

■ تمام، شكرًا ولو عوزتك فى حاجة هطلبك تيجى.

جهزت مكتبى وأفرغته مما يحتوى حتى من الأقلام والورق. لنرى ما هذه اللفافات.

مجلـدان كبيـران لونهمـا أخضـر وكتـب صغيـرة موضوعـة بأكيـاس لحفظهـا ولكـن عددهـا يتعـدى العشـرات.

افتـح المجلـد الأول لأجـد أن مقدمتـه تتحـدث عـن القـدرة علـى إخفـاء الأشـياء والطـرق التـى يجـب أن يقـوم القائـم علـى عملهـا بطـرق معينـة ويُمنـع الخطأ فـى النطـق ولا حتـى فـى الرسـومات.

والمجلد الثانى مكتوب به طلاسم فقط وبها أحرف غريبة ليست عربية بأى شكل.

أمـا الكتيبـات الأخـرى فهـى تتحـدث عـن الأعمـال الانتقاميـة والـرد علـى السـحرة بسـحر آخـر وكيفيـة الخـداع بالعـين والإيحـاء وإيـذاء أجسـاد البشـر.

نعم هذه الكتب قيمة جدًا، ويجب ألا تقع فى يد فاسد أصيب بفساده بمرض الأذى.

لقـد تعـدى ثمنهـا الآلاف والآلاف وعمـر أوراقهـا يتعـدى قرنـا مـن الزمـان.. حتـى حـروف الكتابـة بهـا ليسـت لماكينـة طباعـة حديثـة والرسـومات التـى بهـا رسـومات يدويـة، وهنـاك كتـاب مكتـوب بخـط اليـد.. والـذى يتحـدث عـن رد الأعمـال واكتشـاف أماكنهـا وإفسـادها.

كل هذا الوقت وأنا اقرأ المقدمات والأبواب فقط دون التغول داخل هذه الكتب...

يقشـعر جسـمى عنـد سـماع أى أصـوات أو خلافـه، أى حـركات للأبـواب أو صـوت للهـواء أو صفيـر بالشـارع.

انتابنى الخوف حتى من كأس المياه وأنا أصبه.

قـررت أن أريـح عقلـى قليـلاً فقـد تعديـت الثمانـى سـاعات وأنـا جالسـة أفكـر كيـف سـأصل لهـذه الرمـوز ومـا النتائـج مـن عشـرات الكتـب هذه.

لا أعلم.

سأنام قليلاً..

صوت طرقات على الباب؟

■ أنا عمك أبو أحمد يا رحمة.. افتحى يا بنتى.

أخذنى بالأحضان وكأنى كنت بنته بالفعل وتائهة عنه، يا ليت أمى وأبى موجودان لأجد هذا الاشتياق وهذه الفرحة، وأرى لهفتهما.

■ فينك يا بنتي، بقالك كام أسبوع مش شايفك وبرن على تليفونك دايمًا مقفول!

■ يا عمى فى شغل وكنت مسافرة، وتعبانة جدًا.

■ إيه الكتب دى كلها، أنت بتذاكرى من تاني؟!!

■ لا ده ورق تابع للقضية إللى المكتب مكلفنى بها.

■ ربنا يوفقك يا بنتي، ولو محتاجة فلوس أو محتاجانى أروح معاكِ فى أى مكان أنا أبوكِ متتكسفيش، وأم أحمد عملالك أكل.. شكلك مكلتيش أكل بيتى من زمان.

■ ربنا يخليك يا عمى أنتم أهلى وناسي، وصاحب العمر لأبويا الله يرحمه.

■ اه صحيح.. فى عريس جايلك يا بنتي، ابن الضابط مراد ساكن فى العمارة اللى جنبنا، شاب زى الفل شغال محاسب فى بنك. والناس جم قالولى وطلبوكِ، عشان عارفين إنى زى أبوكِ.

قاطعته..

■ انت عارف يا عمى إن فكرة الجواز أنا مش بفكر فيها نهائي، عارف المشاكل اللى أنا خايفة منها، وأنا دلوقتى بجرى ورا شغلى وإن شاء الله هحقق حلمى..

■ ربنا يوفقك، بس فكرى.. مش هرد عليهم، وربنا يختار لك الخير.. تصبحى على خير.

عيون الشمس تظهر لى من خلف الزجاج، إنه يوم غريب.. لا أحلام ولا شيء.. خير خير..

أخذت الخمسة جنيهات ونزلت إلى أقرب مكتب تصوير، فهو يعرفنى منذ أيام الدراسة إلى الآن، كنت أصور ملفات القضايا عنده، طلبت منه أن يلتقط ويصور الجهة التى بها الكتابة وأن يقوم بتكبيرها ويثقل حبرها.

محاولاته فشلت فلم تقم هذه الماكينة بسحب كل الكتابات، فالصورة لم يظهر بها أى شيء.

فكرت برسمها بيدي، مع ترددي، لا حل أمامى قد حاولت تصويرها أفضل من كتابتها.

سأخوض التجربة،،،

أحضرت القلم الرصاص والممحاة والمبراة، وكأنى فى حصة من حصص الرسم بالابتدائية.

وورق أبيض وحاولت أن أقوم برسم هذه الكتابات بشكلها، وبيدى عدسة مكبرة.

اقتربت من تقليدها بنسبة ٧٥٪ . . نسبة معقولة.

سأبحث وأفر فى الكتب لحين أجد شبيه هذه الرسمة داخلها.

وبدأت ساعات البحث، دون فائدة فعندما كنت أجد شيئًا شبيهًا لما هو مكتوب، أجد أخريات مثلها.

لم أتغول فى القراءة، بل كنت أرى الرسومات فقط.

بدأت فى تصفية هذه الصفحات. . وصلت إلى ٢٠ صفحة، لا حل أمامى إلا أن اقرأها. ليس أمامى بديل. . لعلى أجمع الرموز المشتركة وأفهم.

«يجب أن تشعل اثنى عشرة شمعة باتجاه الشمال. . .»

البداية ليست محبذة. . إنها بداية الشروع فى عمل.

ماذا سأجنى من كل هذا إلا وجعًا للعقل. . خفت ولم أكمل وسأتنازل عن الاستمرار.

فإنها طلبات تقشعر لها الأبدان، كيف يقوم هذا الساحر بكل شجاعة فى الخوض لإيذاء أخيه؟!

كيف يطلب من يسكن بيتًا واحدًا إيذاء من عاش معه عمره؟! ألم يتذكر يومًا له حتى وإن كان سلامًا فقط.

إنه ورث وسواس قاتل هابيل؟!

لا أعلم. . ألم نتعظ؟! ألم نعلم أن الشيطان ينتقم منا؟! نفقد عقولنا خلف خلافات لو تم حسبانها وما مدى صغرها، لفقدنا صفة «ذوى العقول» لأن العقل يرفض ما نقوم به.

نتنازع وننسى التسامح وننسى لمَ خُلقنا، ننسى آيات الله دائمًا، ينسون أنفسهم من أجل المال ويقتلون لأجل طمع، يخونون الوطن ويسبونه من أجل حفنة من الأموال.

لماذا لا نحسب أن السيرة هى ما تبقي، خلد التاريخ أسماء كانت خالدة بمساوئها. . وأخرى بحسناتها وإن كانت وحيدة.

كلنا مخطئون ولكن ما سنجنيه قليل عما نقترفه.

قطع كلامى لنفسى من وعظ أيقظ به ضميري، أحب حديث النفس لأذكرها دائمًا.

تواصل معى سامح.. هذا المحامى الشاب محمود السمعة وحسن السيرة.. كلى يقين أن مستقبله سيصبح غاية من النجاح..

■ يا أستاذة تانى مرة طفل يموت بس المرة دى بطريقة مختلفة محروق أطرافه وظهره.

■ عايزة تجيبلى المحضر والتقرير بتاع الطبيب الشرعى وتتابع القضية كويس جدًا.

لا مفر أمامى إلا أن أضغط على أنفاس ضعفى وخوفي، وسأبحث من جديد لعلى أجد شيئًا؛ لأصل لتفسير ما يحدث من قتل أبرياء، بين خيارين.. الأول أن أخاف وهو الحل الأمثل.. والآخر أن أجازف لأصل إلى حل لمشاكل بلدة السحر ولكنه الخيار الأسمى.

بدأت بتشجيع بنات أفكارى لأستعد للقراءة، إلى أن وصلت لمنتصف الصفحات ولم أجد شيئًا، بل لم أفهم.

استرحت قليلاً، ونعست على الكرسى الذى بالصالة، وأشعلت التلفاز بعد نعاسى الذى لم يتعد دقائق.. أريد أن أفصل نفسى عمن حولى.

برنامج..

لمذيعة مشهورة، أحب أن أشاهدها ولكن طريقتها أشبهها بالسكر الزائد أو الملح الزائد.

ولكن سأشاهد..

فيديوهات حرائق لمنازل فى إحدى قرى الصعيد بلا سبب؟!

أهل القرية يتهمون الجان بحرق المنازل! والرأى العلمى إنه ماس كهربائي!

هل تتشابه الأحداث وهل توحدت الظروف، أم هو خيال أم هروب من حقائق لنصنع زيفًا؟

أغلقت الشاشة مسرعة، فورائى مهمة ولا يتسع ذهنى لأفكار أخرى.

أدخل مكتبى بعد عمل كوب شاي، ومستعدة لإكمال الورقات الأخيرة.

رجفة بجسدى أصابنى الصراخ معها.. يداى بهما رعشة وكأننى فى شيبتى.. سقط

الكـوب السـاخن .

قطة سوداء جالسة على الكتب والأوراق ولونها شديد السواد ، يغلق الباب وينكسر الزجاج ؟!

لم أستيقظ إلا على أيدى أم وأبو أحمد.. جالسة على سريرى وهو يبتسم

■ «أنت بخير يا رحمة»؟!.. قومى يا بنتى مالك ؟!

فى إيه!!! إيه إللى حصلك؟!

رد فعلى لم أتوقعه ، صرخت وأسأت حديثى معهم . سكت ولم يرد ، أغلق عليّ الباب . .

ظللت أبكى ولا أعلم لماذا ، جلست فى غرفتى مدة طويلة سارحة ولم أحرك حتى جفنى .

أسمع حديثًا بالخارج . . (ميكونش دخل حرامي ، أمال الزجاج المكسور ده إيه) .

أفتح الباب وأراه جالسًا ، مسكت يديه وقبلتهما ولم يسألنى عن شيء ولم أسأله .

مرت ساعتان أو أكثر على نزوله ، ثم دخل عليّ وفى يده شخص غريب . . انتظرانى بمكتبى لحين أن أغطى رأسى .

شعرت أنه طبيب ، الجنون قرينى الآن . . طردتهم وأغلقت الباب ودموعى سالت وراءه .

لم أكف لهذا الحد .

سأكمل بحثى ولم أيأس . . فقد اقتنعت بأنه يجب أن أصل . . أرى أن هذه الأحداث هيئت لي ، تحولت من حب المعرفة . . لعناد لا أكثر مع هذه الكتب .

يداى ترتجفان وعيناى يصيبهما انعدام الرؤية بشكل تام .

دخلت أغسل وجهى وصنعت كوبًا من القهوة .

مكتبى النور به يُطفأ ويفتح دون أى مساس بمفتاح الكهرباء . .

الكتب ملقاة على الأرض!! ويسيل منها سائل أحمر مثله مثل دماء الشيء المذبوح .

جلست على ركبتيّ ووضعت يديّ على الأرض . . وانهال عليّ البكاء وبصوت يملؤه الضعف أخاطب من هم بالداخل بصوت عالٍ . . سلمت نفسى للقدر ، كان ببالى هل سيخرج عليّ شيء وتنتهى سيرتى

« أنا مش عايزة حاجة . . أنا مش عايزة حاجة» أنا عايزة أحل مشكلة ناس . . .

نزلت مسرعة للشارع يتلبسنى برود عجيب . . هل لعدم تصديقى لما حدث؟! أم أصبت بمكروه لا أعلمه؟

أمشى على الكورنيش وأطل لهذا النيل . . فطالما سمع شكواى . . كنت ألقى همومى به وكأنى ألقى حجرًا أعلم أنه لن يطفو فوق الماء أبدًا .

سحبت من جيبى هاتفى واتصلت على فرج لأطلب منه أن يجد لى أحد المشعوذين المشهورين بصيتهم .

فى منتصف اليوم اتصل بى وهو يبشرنى بأنه وجد الشخص .

■ فين ؟

■ البحيرة .

■ إحنا لسه هندور عليه .

■ لا أنا عرفت مكانه فين ، الصبح يا أستاذة نسافر ليهم .

■ ليهم؟! مش فاهمة .

■ أصل أنا زى ما اتحكالى إن القرية دى مشهورة بكده .

«الموروث الأسود»

لـم أعـد أنـا، عينـاى حاصرتهمـا الخيـالات.. وأذنـى أسـمع بهمـا.. بـل داخلهمـا همـس دائـم، هـل هـى لعنـة الكتـب، أم لعنـة صاحـب الـرداء الأبيـض.

استعدت قواى المهزومة ودخل شيء قلبى لا أعلم ما هو وماذا الذى على كتفى.. أبقايا رسم هو أم طلاسم؟! خائفة وسأكمل طريقى بحثًا عن مجهول.

ندخل ممرات فمن هنا لهناك وبعد ساعات من وصولنا جرشنا السيارة فى مكان بعيد عن الطريق العمومي، وركبنا إحدى وسائل المواصلات التى أكرهها من كل قلبى المسماة بالتوكتوك.. هذا الوباء المنتشر بضجيج سماعاته.. طلب فرج أن يطفئ هذا الكاسيت، ورد مستنكرًا باستهزاء «حاضر يا بيه» عايزين نروح لبيت الشيخ «أبو حازم».

ضحك ضحكات عالية «الاااه ده انتم منهم».. حاضر هوديكوا.. الراجل ده مبروك وبنسمع عنه كلام عجب.

فى أحد النجوع ندخل إلى بيت أبو حازم هذا، أشبه بالبيوت الطينية التى تعتليها عروش الشجر، وأبوابها التى عفى عليها الزمان، وأرضيات المنزل الملونة بالأسمنت لتأخذ شكلاً جماليًا.

سيدة تلبس أساور تملأ نصف ذراعها، والأخرى يملؤها خواتم الفضة الكثيرة والتى لا تليق بيديها الثمينتين، ليس استهزاء منها، بل تعجب من ترحابها وكأنها تنتظرنا، تلبس حذاء بلاستيكيًا وعباءة ثقيلة نوعًا ما وحلقان الذهب طويلة بشكل عشوائى الذى ليس فيهم أى جمال.

■ إحنا عايزين الشيخ.

■ هو معاه جلسة جوه، هتدخلوا على طول.

المتحدث هو فرج، أما أنا فكنت صامتة سارحة طيلة الطريق.. أخرج من جيبه أموالاً ووضعها فى يدها، فهل هم معالجون روحانيون كما يدعون؟!

لم ننتظر إلا دقائق، وخرج الناس من الداخل، ودخلت «أم الغوايش» إليه ونادت علينا لندخل.

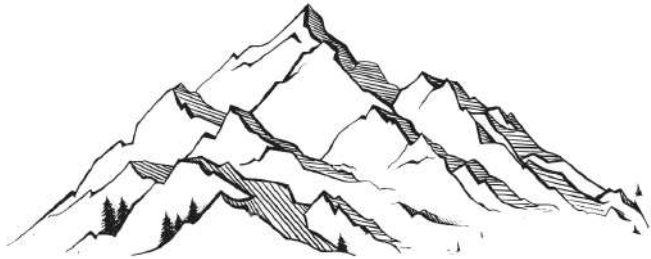

■ السلام عليكم، إحنا جاينلك من القاهرة مخصوص.

■ أهلا بيكوا تؤمروا، اقدر أخدمكم إزاى.

بدأت أتحدث وأنظر له فى يأس، أنا معايا عملة مكتوب فيها كلام عايزاك تفسره.

■ اديهانى

بدأ يقرأ ما هو مدون بها، وضحك.. «أبو العزايم» هو اللى عامل الكتابات دي، أنا عارف شغله، هى عمل حقيقى بس هو كان نفسه يعملها سبب لمشاكل أى بيت، وحب يخوف إللى ماسكها. متخافيش حل المكتوب إن الفلوس دى تتحرق، لا أكتر ولا أقل.

■ معلش مين أبو العزايم؟

■ أبو العزايم ده دجال اشتهر بأعماله السفلية، وأذى الناس واشتغل فى الآثار والنصب على الناس.

■ معلش مش متأكدة إن حضرتك بتتكلم عن الشخص اللى هو عامل كده.

■ بنى سويف هو من هناك ولف قرى مصر وكان شغال مع أبوه وعلمه حرف حرف، حتى مسميينه الموروث الأسود. محدش يقدر يوصله بسهولة، بس إيه علاقتك بيه؟!

نظر لى عم فرج وكأنه يريد أن يطالبنى بعدم البوح بالحقيقة.

■ شغالة على قضية عشان أقدر أساعد أهل البلد، الناس بتتقتل بدون سبب ومحدش قادر يعرف سبب.

■ ابعدي، ابعدى عن أبو العزايم.. مؤذي، فى ناس حاولت تنافسه أو تحرقه.. أذاهم، ربنا يحرقه ويحاسبه على أعماله، كنت أسمع إنه هينتقم من اللى طردوا أبوه وهجروه.

ذهبت وكلى يأس.. فلم أصل لشيء ولم أستفد شيئًا، إلا لغة تهديد على لسان «أبو حازم»!

قرارنا ليس صائبًا أن نذهب لهذه الجزيرة التى يقطن بها صاحب الجلباب الأبيض، فهل استقرارنا هناك قد يجعلنا نرى ما يحدث ونكون بجوار «أبو العزايم»؟

ذهبت لمكتب بنى سويف.. استوحشت المكان بكل ما به، خاصة الهدوء وطبائع الناس وهذا

المنظر الجمالى من حقول خضراء.

كنت مرهقة بشكل مميت، لم أصل لشيء وأتمنى أن أصل وينتهى هذا الطريق طويل التفكير.

فى اليوم التالى.. طرق باب المنزل بيدى عم فرج الغليظة.

■ أهل البنت إللى زرناهم عايزين يشوفوكِ.. هم فى المكتب فوق.

صعدت لأرى ما طلبهم وما مرادهم، ابتسامتى التى اعتادوها لم يجدوها على وجهى..

■ نعم!

■ عملتِ إيه يا أستاذة.. المشاكل زادت وحرقتنا على بنتنا مش عارفين نبرد نارها.

■ احرقوا فلوس أبو العزايم.

نظروا مندهشين؟!

■ أبو العزايم!! نحرق فلوسه، هيموتنا..

■ مهو بيموتكوا كل يوم.

دار فى البلد حديثى عن أبو العزايم، وبدأت بيوت بالفعل حرق أموال أبو العزايم، وطلبت من النيابة بعد عمل توكيلات من أهالى الضحايا تفتيش منزل هذا الرجل.

كان قرارًا جريئًا.. وابتعد وقتها كثير من أهل البلدة لدرجة أنهم خشوا أن يقفوا ليشاهدوا كسرنا لباب هذا المنزل.. ولم نهتم لتحذيرات عمدة القرية.

وكأن أرواحًا تنهش كل من حاول فتح هذا الصندوق الأسود ذى الباب المنزلى وستخرج علينا.

بخبطات جزع الشجر يحاول العساكر كسر وتهشيم هذا الباب، شكله لا يوحى بأى حماية، عبارة عن رقائق خشب..

تتزايد ضربات التكسير واحدة تلو الأخرى ومع كل خبطة يزداد قلبى نبضًا، أشعر أننا سنجده بالداخل، أو نجد موتي، أو آلات عمليات التعذيب هذه.

رأيت الباب وهو يسقط أرضًا ويلاحقه خفقان القلوب.

انهار المنزل كاملاً وكأنها ثورة للأتربة تخرج منه، العفار يتصاعد وكأنه يعلن الحرب علينا.

مرت دقائق وهدأ هذا العفار مثل زعابيب الصحراء، المحملة بالأتربة . . فتراب هذا الخشب وهذه الجدران كان به رائحة الموت . . رائحة الجثث المتعفنة، هذا الهواء الذى خرج علينا، لا نعلم من أين يدخل علينا .

بدأ رجال المباحث البحث فى هذا الركام ليجدوا أى شيء، تراب أسود لمنزل زاد عمره على أعمار من يقفون بجانبه .

يلقون هذه الأعواد الخشبية بعيدًا، لم يجدوا أى شيء كدليل أو حتى جثة أو عظام أو ما شابه، ومرت الساعات بمساعدة أحد لوادر المحافظة فى حمل هذا التراب، ومع صوت نجدة أحد العمال .

■■ «علي» وقع «علي» وقع؟!!!

نزل مهندس مجلس المدينة على ركبتيه؛ ليرى أين سقط هذا العامل، ومع ذهول تام للجميع وأولهم أنا .

■■ عايزين حبل .

كان صوت المهندس بنبرة حادة، لنجدة رجل لا ذنب له، كانت الساعة الخامسة عصرًا وبدأ نور الشمس فى الاختفاء وظهر لنا وجه القمر، وحلت علينا أصوات الفزع . .

لم يكن «برص» متفرد، بل جماعات بأشكال تتقيأ لمنظرها .

هرب العمال وهرب من كان يقف أمام هذا المنزل .

لم يكن المكان متسعًا ليجرى الناس منه، وخافوا جميعهم من مس هذا الكائن بسوء اعتقادًا بأنه جان، بل هى الأرواح الشريرة التى تسكن هذا المنزل، أو هذا الخندق .

رمى العمال الحبال وأشعلوا أنوار السيارات وأضاؤوا المصابيح بكشافات كبيرة ليروا ما فى هذه الحفرة التى بابها مثل مداخل الخنادق السرية .

لم يختلف شكلها عن شكل الأماكن السرية التى بالبيوت الأوربية، إنها بئر رائحتها عفنة . . ماذا يفعل هذا البئر فى منزل لم تتعد متراته خطوات معدودة، لا هو أرض زراعية، ولا دوار كبير!!

شعرت بالإرهاق بشكل تام، طلبت من رفيق الطريق أن يوصلنى للمنزل وهو يسندنى على يديه

مثل من بلغ السبعين، أقف وأتساند على الكرسى الخرزانى . . لحين قدوم السيارة .

طلبت من المحامى أن ينتظر هنا لحين أن يجد جديد، وأن يخبرنى إن وجد شيئًا هامًا وضروريًا .

لم أبدل ملابسي، وبصوتها الكريه البومة تتبوأ أفرع الشجر أمامى بل أمام شباك غرفتي، يصاحبنى معها الشعور بالغثيان، فأنا لم أضع فى فمى أى زاد . . وغلبنى النعاس ويداى ملقاة أسفل السرير .

«بئر الظلمات»

استيقظت وأنا استعيذ بالله، إنه حلم، حلم، لا تقلقلى.. عددها كان كثيرًا وهى على جسمى كانت تغطينى بشكل كامل، لم تكف عن إخراج لسانها على جلدى.. «أبراص» كثيرة تشل حركتى.

مر يومان ولم يجدوا العامل التائه فى هذا البئر المخروطي، رموا الحبال التى تعدت ١٠ أمتار ولم يصلوا لآخر البئر أو السرداب، أشعلوا الكشافات به فابتلع الظلام أشعة النور.

المجارى لم تدخل أساسًا هذه القرية، بل عبارة عن صرف القاذورات بالترع أو شفطها بسيارات مخصصة لذلك.

فماذا يكون؟! شغلت هذه الحفرة العميقة بال أهالى البلدة وبال مجلس المدينة ومهندسيها، فلم يصادف أحد بئرًا بهذا العمق داخل منزل صغير، ولم يذكر أحد حتى أجداد من هم موجودون أن هناك بئرًا فى البلدة.

بيت «أبو العزايم» على المشاع الآن ومستباح دخوله، وهل يظن الناس أن هذه بئر قد يرتووا منها!! إنها بئر الظلمات.

تطوع أهل القرية فى بناء سور لكى يغلق الدخول لهذه الفوهة؛ خوفًا من سقوط الأطفال أو خروج شيء منها.

شعر البعض أن أسطورة «أبو العزايم» قد انتهت، وأن حال البلدة قد هدأ.. مر أسبوعان دون أى جديد.

قلبى لا يطمئن، فكيف سيهدأ هذا الرجل بعد أن هُدم منزله وطُرد أبوه من قبل؟!

حتمًا سينتقم، سيشغل الناس فى هم الحفرة، ويعمل على شيء جديد يهواه..

أطل من الشباك، لأرى الهدوء يعم على المكان كالعادة، لا توجد أى أصوات إلا لخبطات الكرة فى جدران مركز الشباب.

انقطع النور فجأة..

اعتدت هذا الأمر، يشعل «فرج» الشموع، ويضعها فى إناء حديدى خوفًا من احتراق شيء.

نسيم يأتى علينا من هذا الشباك، نعم إنه هواء يريح النفس والعقل.

تهب روائح الدخان، نهضنا مسرعين لنرى ما هذا!

اشتعل منزل بالقرية...

أصوات تنادى لجلب الماء لإطفاء الحريق، وليس كالعادة.. أسمع أصواتًا لصفير وحدة المطافئ.

يزداد اشتعال النار لهيبًا شبيهه كمن وضع البنزين على سطح هذا المنزل، هل لوجود القش مثلاً؟!

بدأ رجال المطافئ الاستعداد لمد خراطيم المياه الثقيلة للبدء فى الصعود على السلالم المجهزة لهم، وأمر الضابط بفتح المياه.

فكان العجب.. لا توجد أى مياه بالعربة، كان منظرًا مأساويًا، ولكن الضابط تدارك الموقف وطلب سيارة أخرى.

لم أتخيل حدوث ذلك، فلو كتب بسيناريو لفيلم كوميدى لكان أكثر منطقية، الخزانات مفرغة من المياه؟!

تسارع السكان على مد خراطيم المياه ولكن كانت المفاجأة.. انقطعت المياه عن البلدة.

لم يجد الناس حلاً إلا الذهاب لهذه الترعة، وأخذ جرادل منها لإطفائها، فهذا هو الخيار الصعب، أن تتدارك موقفًا وأن تلوث يديك وجسدك بقاذوراتك التى اعتدت أن تصرفها بها.

اشتدت الرياح وتطايرت النيران واحترق أكثر من سطح للبيوت المجاورة، فجميعها متلاصقة، الأسقف معظمها خشبية، قد يكون تسقيفًا للمنزل أو لاستخدام هذا الخشب القديم لأغراض عملية صنع العشش أو إشعال النيران للتدفئة.

المنظر وأنت تشاهده كجمرة نار سقطت على المنازل.

ليت بى طاقة لأستعد للنزول وأساعدهم.

ميزة هذه الشقة أنها دور كامل، ومكان العمارة مميز بعكس البيت الذى أنام فيه، أرى جميع الاتجاهات، فعند دخولى لباب المكتب أستطيع رؤية المركز ووحدة الإسعاف ومركز الشباب وبعض

المحلات التجارية من ناحية الشرق، وأما بالاتجاه الشمالي، استطيع أن أنظر على الترعة وعلى الكوبرى الفاصل بين الجانبين كما يسمونها «معدية البحر» وأرى مقابر الموتى وبعض الأراضى الزراعية، وأما بالاتجاه الغربى فأرى بيوت أهل القرية، وأستطيع أن أشاهد كل ما يحدث بسهولة؛ لأن العمارة التى بها المكتب أعلى المبانى بهذه المدينة.

ويوجد «روف» مطل أستطيع التحرك من خلاله على جميع هذه الاتجاهات بسهولة.

الشخص نفسه أجده جالسًا على أطراف الترعة، ينظر إلى تلك المصارف وكأنه يتأمل فى جمالها، يمسك فى يده هذا المصباح...

قام من مجلسه وهو ينظر إليّ بكل جرأة وكأنه يعرفنى أو يلومنى لأننى قطعت خلوته.

■ يا أستاذة رحمة ده «أبو العزايم»، أنت مش فاكرة كلام أهل البلد.

■■ كنت اتكئ على يدى وأضع عليها رأسي، وأشاهد المناظر، ولم أسمع إلا كلمة «أبو العزايم»..

■ أبو العزايم؟؟!!

■ ايوة هو أبو العزايم.

نزلت مسرعة على السلم ويجرى ورائى من فى المكتب، أريد أن أمسك هذا الشخص، لم أجده...

ظللت جالسة لانتظره حتى يأتى... من أفسد راحة آلاف البشر وأفقدنى راحتى. فأنا لم أصبح محامية، بل لدى ثأر، ثأر لأولاد آدم.

بدأت سلاسل الحرائق كل يوم.. وكأن الجان هو من يشعلها فى الخفاء، من الفاعل، فلا آثار لجانٍ؟!

اتصلت أختى لتسألنى أين أنا من أجل ذهابنا للمحكمة لإنهاء إجراءات الإرث؟ أغلقت فى وجهها الهاتف فلن أبالى بعد الآن.

هل يزداد همى حتى ممن يملكون جيناتى نفسها، وتفاصيل ملامحي؟! الصفات تتبدل.. ألم

يعتبروا يومًا أنا كنا من أب واحد، كد وتعب من أجلنا.

لم تمل من محاولة الاتصال مرة أخرى.

وأرسلت لى رسائل عديدة، أخجل أن أرويها.. تهدد أختها بأنها ستتهمنى بالعته والجنون وسيكونون أوصياء علىّ.

رأيت صورة لها قديمة تجمعنا قد وضعتها حديثًا، لم أجد تعليقًا مناسبًا إلا بردى عليها بهذا التعبير «المحرقة وأولاد إبليس»، فأنا فى حرائق.

أشاهد هذه المدافن كل يوم، أراجع يوم موت أبي، يوم بكائى الصامت..

كنت أقف وبابها يفتح والجثة ملفوفة بالقماش الأبيض.. ويمسكه ثلاثة أو أربعة ليعدلوه اتجاه نزوله، إنى أرى أبى لآخر مرة فى حياتى.

يرمون التراب فوق البلاط لإغلاقها ويرشون الماء.

ويأتون بشجر الصبار.

هل سمى صبارًا لقدرته على الصبر والاحتمال؟!

هل لأنه يسكن مع الجميع.. الأحياء والأموات أم لأنه يتحمل عطش أولاد حواء وآدم؟!

هو جميل الشكل ولكن أشواكه تحذر من يقترب، لا توجد حيوانات تأكله سوى الجِمال، فالجمل يصبر أيضًا.. هل تجتمع الصفات وتتحد ليستفيد الجميع من بعضهم البعض.

وجدت نفسى أقف أمام هذه الترعة ورجلى تمشى بإرادتها وليس بإرادتى.. إنها ناحية المدافن، لعلى أجد هذا الدجال «الكافر» فهو كفر.. حلل دماء الكثيرين لغاية أعلم بكل يقين أنها لن تكون أسمى، بل هى أشد سوءًا من سفكه لدماء وحرق.

وتمر الأيام ويصبح انتظار هذا المعزم عادة لي، اشتد الحر.. والحداد قائم على القرية وأنا انتظر هذا الهارب.

سمعت من أحد وهو يروى عن لفظ شد انتباهى «ضج الميتين» كان يسكن هنا بجانب هذه المقابر.. يسمع صراخًا وعويلًا ليلاً ونداء عليه.. أرهبنى.. فهذا كلام تقشعر له الأبدان وضج قلبى

خوفًا منه.

سرت ليلاً أريد أن أرى هذه المدافن أريد أن أشعر، كيف يشعر أصحاب القلوب عند دخلوهم العالم الصامت ليلاً، بل وما زاد قلبى قوة هو ظنى أنه «أبو العزايم» من يفعل هذا.

أمسك عصا بيدي، ليست عصا بمعناها القوي، بل فرع شجرة لأتحسس الظلام.

وفجأة صوت لطبول وأجراس وأنفاس تتهافت فقط بالتنفس المسرع.

خرج شخص يجرى مسرعًا ناحيتى.

■ إيه اللى جايبك هنا؟!

الصمت كان غالبًا عليّ.. لم أسمع إلا أنين أصوات أسلاك الكهرباء بصفيرها المزعج.

لم أجد إجابة.

نظر لى نظرة يمكن أن تكون ضعفًا أو تحذيرًا.

■ امشى من هنا، قبل ما حاجة تحصلك.

صوت يخرج من وسط الشجر..

■ عارف إنك كنت هتيجى برجليكِ، عارف إن الأيام مش هتطول، ماندهتش على حد إلا لما جالى.

أسـوأ مـا قـد يصيـب الإنسـان أن يفقـد شـهيته فـى القـول، فـى الضحـك، فـى إظهـار ردّات الفعـل، أسـوأ مـا قـد يصيبـه أن يمـوت حيّـاً!

«إميل سيوران»
فيلسوف وكاتب روماني

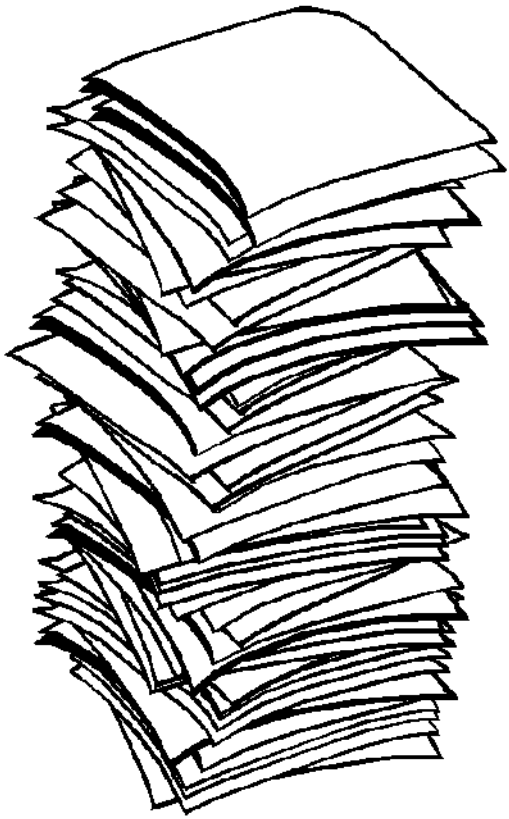

« كراريس العمر »

لـم يكـن درجًـا للذكريـات فقـط ، ترتيبهـا لهـذه الأحـداث كان منسـقًا مثـل خطهـا وطريقتهـا فـى سـرد المحاضـرات ، تعشـق اللونـين الأسـود والأزرق فـى الكتابـة . .

رسوماتها كانت غريبة لأحلام طفلة فى ربيع العمر . .

ميس سامية . . بحب أقعد معاها أوى فى المكتبة . . كانت بتعلمنى إزاى أقدر أدوّر على كتاب . . .

وأقلـب ورقـة تلـو الأخـرى ، طفلـة بريئـة حتـى فـى غيابهـا . . مـررت علـى مراحـل عمرهـا واحـدة تلـو الأخـرى إلـى أن وصلـت لأعـوام الكليـة . . ازدادت كتاباتهـا وازداد عـدد الفصـول وازداد أنينهـا وازداد اشـتياقها لأمهـا .

«عمر»

انه اسمى

ماذا تخبئين داخل طيات الصفحات؟ ! أخاف أكون فصلاً للخريف . . .

«هـذا الشـاب المشـاكس غريـب الأطـوار ، سـريع الانفعـال والمشـاعر . . نظراتـه لـم تكـف عنـي ، وكأنـه لـم يـرَ غيـرى بـين آلاف فـى بهـو الأشـجار هـذا ، خفـت أن يأتـى ليتحـدث معـى . . يومـين يتتبعنـي ، كائـن اجتماعـى لـم أره وحيـدًا قـط . . مظهـره لائـق ووجهـه يتسـم ببعـض العنـف فـى المعاملـة يوحـى بأنـه صاحـب مشـاكل وأزمـات ، ومـع هـذا الجميـع يحبـه ، طريقتـه بهـا سـوقية وكلاسـيكية وسياسـى ودبلوماسـي ، أرى فيـه صفـات كثـر ولكـن ينقصـه شـيئان . . الصمـت والهـدوء ، انفعالـه وثرثرتـه الكثيـرة لا أحبهمـا ، فهـو صريـح أيضًـا لا يخجـل ونبـرة صوتـه بهـا غلظـة لا يسـتطيع أن يكـون رومانسـيًا أبـدًا» .

■■■

١٩٩٦/١١/١

تشـجع عمـر لأن يحدثنـي ، دخـل بـكل جـرأة ، تظاهـرت بتجاهلـه ، اسـمع أنـه «بائـع كلام» . . . يحـب أن ينشـئ عـدة قصـص مـن ورود الحـب .

دخل عليّ وأنا جالسة . . رفضت النظر إليه ، وقتها ذهب وحيدًا ، وجهه وهو عابس ممل ، أين ضحكته وابتسامته؟! . .

لم يكن تطوعًا بل قلبى من ذهب . . جلست إلى جواره ، ضحك فى وجهى وأنا أيضًا ، لم يطل حديثنا . . ننظر فقط .

■■■

١٩٩٦/١١/٢٩

أجهز له ملخصات المواد ، كان هاويًا للتصوير . . أضاع ماله ليشترى به كاميرا صديقه جلبها من السعودية ، ثمنها كان باهظًا . . .

كان يتفاخر بها دائمًا . . .

يستلم منى الورق ، ولكن هذه المرة لم يطلب عمر أن أصوره بجانب الكتب الدراسية ، أو بجانب هذا الشجر أو داخل المدرج أو أمام القبة . . رمى ما فى يديه وكاد يلقى بالكاميرا أرضًا ، ممكن أتصور معاكِ .

قالها على استحياء ، خاف أن أحرجه ، لم أناقشه كثيرًا والتقطنا هذه الصورة .

رأيت فى عينيه الكثير من الكلام .

كنت أصده دائمًا . وأصد من يحاول أن يقترب للتعرف عليّ ، فأنا أعرف « عمر وصديقه مصطفى وصديقة مصطفى التى لا أعلم اسمها إلى الآن» .

■■■

١ فبراير

غاب عمر ، لن أراه مرة أخرى ، هل أشتاق إليه! . . لم أعرف يومًا ما معنى الحب ، هل تعلقت به . . لم أحب فى حياتى إلا أبى .

هل سأحبه مثل أبى .

■■

مر عام على معرفتى بعمر . . نعم إنه عام ، قابلته فى أكتوبر السابق واليوم ٢٧ سبتمبر ١٩٩٧ . . .
هل احتفل بأنى عرفت شخصًا طيبًا ، يخاف عليّ . . . أعلم أنه يحبني ، لماذا لم يسألنى إلى الآن .
هل حدّ علاقاته مع الجميع من أجلى .

■■■

اختفى الوحيد الذى أعرفه ، لا يظهر . . .

■■■

أسبوعان يمران ولا يظهر ، يجب أن أسال عنه . . سألت صديقة مصطفى «سما» أين هم ، لم أود أن اظهر اهتمامى نهائيًا به .

■ عمر كان تعبان وفى المستشفى وتقريبًا خرج أو لسه .

■ ممكن أزوره؟!

■ هو كان فى مستشفى فى مصر الجديدة ، بس معرفش طلع ولا لسه .

■ هديكِ رقم تليفون البيت بتاع مصطفى (٥٠ . . . .)

اتصلت عليه واطمأننت على صحته ، وطلبت منه أن نزوره جميعًا .

كان لسه فى المستشفى ، مكسوفة جدًا . . .

خايفة حتى أقول له ألف سلامة .

مصطفى فتح الباب ، كنت ماسكة ورد فى إيدى . . . هو مصطفى مش كان قايله إن فى حد جاي ، أول ما دخل طبعًا زعق فيه «أنت كنت فين» . . شافنى راح ساكت ، أخوه كان جنبه . . هو تقريبًا مش كان شايف حد غيري ، بصلى كده بصة عتاب وضحك نفس أول ضحكة اتقابلنا بيها .

ماقلش غير شكرًا ، أنا متشكر على زيارتك .

سلمت عليه ومشيت . . .

سمعت شكرًا وكأنه كان يتغزل بكلمات لم أسمعها .

■■■

أعرف تفاصيله من صديقه مصطفى، لا أحد فى الجامعة يعلم أنه مريض إلا نحن الثلاثة، على قد ما فهمت من مصطفى هو مش بيحب إنه يسمع أى كلمة عطف حتى ولو ألف سلامة.

فجأة أجده فى وجهى ويسلم عليّ، جابلى كتب التيرم التاني، أنا مطلبتهاش منه... تقريبًا بـ ٥٠ جنيه.. لازم اديهمله.

أستعد للمذاكرة، وأجد وردة لونها شديد الإحمرار وبها ورقة مطوية، خفت أن يرانى أحد فى المنزل، فتحتها مسرعة ووجدت بها كلمة واحدة «بحبك».

إنها كلمة بسيطة، خفت بسببها.. خفت أن أحب، أنا أحبه حقًا... ولكن خائفة من أن يكون مصير أبنائى مثل مصيرى.

كيف سألقاه وماذا سأقول له، لن أنزل الجامعة الآن.

افتح الكراسة الأخرى... إنها تتحدث عن اشتياق والدتها، وعن حبها لأبيها وعن حبها لى...

نعم إنها كانت تتهرب منى دائمًا بسبب ذلك، وقتها لم أعلم ما السبب وكيف كنت سأعلم؟!

أريد أن أرى كيف ستنتهى قصتنا وصورتنا الأخيرة.

«الورود السوداء» تسميها الورود السوداء، عام تخرجنا.. بل قامت بفصل هذه الذكريات عن الأخرى.

■■■

«عن حب لى قد فقدته.. عن وردة أحتفظ بها من حبيبي، كنت أبحث عنه فى كل مكان.. كان ونيسى الوحيد وحبيبى الأول والأخير، أحببته من كل قلبي، لا أعلم كيف سأراه مرة أخرى.. وأعلم أنه لن يبحث عنى.. قد حاول الكثير والكثير.. كنت اختبر مللـه؟! هل سيمل من حبى أم لا، فقد مل إخوتى منى ولم أتسبب لهم بشيء.

أحبك لآخر العمر يا عمر.. لن أنساك.. داخلى الكثير والكثير لك.. لم أفقد شيئًا قط أعطيته لى.. إلا وردتك فقد ذبلت، حاولت أن أحافظ عليها دائمًا ولكن غلبها السواد!! هل أعلنت الحزن عليك أم عليّ، إنها داخل كتابك الذى أهديته لى.. هل هى مثل قلبى الذى ذبل وهو يتمنى أن

يـراك ودموعـى كل ليلـة تتمنـى أن تسـقط علـى يـدك وداخـل أحضـان أخـى الروحـي، هـل تتذكـر كتابـك المسـروق؟! كتابـك الـذى بحثـت عنـه كنـت أنـا مـن سـرقته.. وودت وقتهـا أن أقتنـى شـيئًا مـن رائحتـك.. شـيئًا عليـه طبعـك.. عشـقت الحـروف والرسـوم التـى كنـت تضـع فيهـا أسـمي».

■■

لم أستطع أن أكمل طريق القراءة، لا أستطيع أن أستمر.. أريد أن أجدها.. دعنا الآن للحاضر.

«محامية فى بلاد السحر».

لقد جذبنى العنوان...

أقلـب داخـل فصـول مـا كتبـت.. وجـدت التاريـخ الـذى دونتـه ٥/ ٢/ ٢٠٠٨ وأنـا اليـوم فـى شـهر... أيـن هاتفـى.

١١ يوليو ٢٠٠٨

يعنى كام شهر «يناير فبراير مارس إبريل مايو يونيو يوليو».

خمسة أشهر...

كتابتها مر عليها خمسة أشهر؛ إنها أحدث شيء...

فتحت نوتة وأخرجت قلمى الحبر، لأدون أهم ما كتبته...

« أسـتاذ علـي، فـرج سـائق المستشـار، بنـى سـويف، سـامح محامـى بنـى سـويف، بائـع كتـب الدقـي، بائـع كتـب سـوق الجمعـة، سـاحر البحيـرة، صاحـب الجلبـاب الأبيـض».

هؤلاء أهم ما كتبت فى مذكراتها، أعلم الآن من أين أبدأ، إنه مكتب المستشار على بخيت..

«ومرت أعوام»

■ مساء الخير، عايز أقابل أستاذ على لأمر ضرورى . .

■ مين حضرتك؟

■ عمر مهران، من مكتب الدكتور علاء الجندى .

■ انتظر .

أعلم أننى لو كان معى قضية وأتعابها ملايين الجنيهات لن أقابله إلا بميعاد وكأنى سأحجز لدى دكتور استشارى بأمريكا .

أعلم أن المستشار على يحب المظاهر، ويحب أصحاب السلطة، فإن لم تكن معى «واسطة» لما قابلته . . واسطتى هى إيمانى وشخصيتى والدكتور . . .

فهو عدوه اللدود الناجح، هو يكره دائمًا دكتورنا العظيم لأسباب منذ أيام الدراسة .

اتفضل أدخل هو فى انتظارك . .

■ أهلا يا أستاذ .

■ سيادة المستشار . . آسف على إزعاجك، أنا عمر . . شغال مع الدكتور علاء الجندى .

■ آه طبعًا . . أقدر أخدمك إزاي؟

■ أنا مش جاى تابع للمكتب، أنا جاى لأمر شخصى .

■ لا للأسف مش عندى مكان، بس ممكن تكتب اسمك بره، وهنتصل بيك .

■ لا يا أفندم، أنا جاى بخصوص رحمة، المحامية اللى كانت شغالة مع حضرتك .

■ رحمة، مين . . . . آه رحمة!!! مالها؟

■ رحمة مختفية .

■ وأنا مالي؟! هو أنا هدور على الناس إللى شغالة معايا . . . ثانية كده . .

«رفع سماعة التليفون»

■ أيوة يا بنتى والنبى ما تعرفيش رحمة فين؟!.. اه يا سيدى ما نعرفش، بس أنت مين بقي؟!

■ أنا زميلها وخطيبها.

■ آه بتحبها يعني، طب يا ابنى إحنا مكتب أكل عيش مش مكتب مأذون. شوف هى كانت فين ولا مع مين؟!

■ عيب ميصحش، رحمة أنت كنت باعتها...

لم أكمل كلماتى....

■ اطلع بره، بره... طلعوه بره المجنون ده.

■ انت وديت رحمة فين؟... أنت فاكرها قضية خسرتها؟!

وحملنى العمال خارج باب المكتب ووقفوا على الباب، لمنعى من الدخول... وحذرونى لعدم استخدام أى عنف وإلا سيتصلون بالنجدة.

نزلت وكلى خيبة أمل وأعلم أن هذا الرجل القميء وراء اختفاء رحمة أو وراء مصيبة هو يعلمها.

أنزل على السلم وكل درج منه كان خطوة يأس لى وكأنى لن أجد رحمة أبداً...

أقف أمام هذا المبنى، لا أعلم ماذا سأفعل ...!!!

أشعلت سيجارتي، وأغمضت عينى أحاول تجميع أفكارى.

أجد يدًا على كتفي، رميت السيجارة والتفت لأتشاجر مع من أرسلهم هذا الرجل عديم الأخلاق؛ لأجد شخصًا فى سن الخمسين أو أصغر قليلاً.

■ بس بس، اهدى يا ابنى.. مالك يا ابني؟

■ أنت مين؟

■ أنا فرج شغال فى المكتب فوق.

■ شغال إيه حضرتك؟

■ السواق الخاص بتاع أستاذ علي، وكنت السواق بتاع أستاذة رحمة «ربنا يرجعها بالسلامة».

■ ترجع.. ترجع منين!! أنتم وديتوها فين؟!

■ هحكيلك، بس تعالى نبعد عن المكتب؛ لأن ممكن يتقطع عيشى.. وأنا هساعدك.. رحمة دى زى بنتى. هقابلك بعد ساعة على أى قهوة فى وسط البلد، رن عليا.

انتظرته على أحد مقاهى رمسيس وكلى خوف من عدم قدومه.. خفت أن يخاف من البوح بما يعرف.

مرت ساعة منذ أن تركته.. يجب أن أعرف أين هو ولمَ تأخر؟!.. أخرج هاتفًا من حقيبتى الجلد لأجده يتصل ويسألنى أين أنا، شرحت له أين هذا المقهى..

لم تمر دقائق، ووجدته فى وجهى..

■ بص يا ابني، أنا والأستاذة بعتنا الأستاذ على بلدة فى بنى سويف بالضبط من ثلاثة أشهر أو أكتر... كان فى مشكلة كبيرة هناك وأهل البلد كلموه عشان يحلها وطلب من الأستاذة تعرف إيه المشكلة لأنه كان خايف إن تكون دى حركات مرشحين يحرقوا واجهته فى البلد ويكون لعب عليه.. روحت أنا وهى وحصل حاجات عجيبة وسافرنا.

قاطعته:

■ أنا عارف يا حاج فرج، لحد أما جيتوا من البحيرة.

■■ رفع حاجبه متعجبًا:

■ انت عرفت منين..

■ رحمة كانت كاتبة الكلام ده فى ورق كانت سايباه ليا، أنا كنت مسافر.

■ المهم يا ابني، سافرنا تانى لبلده، وحصل مشاكل وحرق لبيوت، وفى مرة نزلت رحمة لوحدها من المكتب.. واختفت مش لاقيينها، أنا دورت عليها كتير وأهل البلد دوروا عليها، افتكرتها اتقتلت وهنلاقى جثتها زى إللى كنا بنلاقيهم، فضلت شهر أدور عليها ومش لاقيتها.

■ اختفت أزاى يعني!!!

■ نزلت على الترعة، وكانت بتتمشى عادى كنت باصص عليها من فوق من المكتب، وفجأة دخلت فى الضلمة ومعرفتش أشوفها، عدت ساعة قلقت، نزلت أدور عليها.. معرفتش حتى أعمل

محضر . . بس أهل البلد دوروا والمركز دور معانا ، بس مأخدناش أى إجراء قانونى فى القسم ، قال لى لازم أهلها .

■ طب والعمل يا سيدى .

■ العمل عندك ، أنا إيدى على إيدك . . أنا هدور معاك ، هقلب الدنيا عليها . . لولا إن معايا أهل بيتى وخفت أكل عيشى يتقطع ويرمينى فى الشارع ، شوف يا ابنى . . . سافر البلد هقولك الطريق هيكون إزاي ، وفى هناك شاب محامى كان شغال مع أستاذة رحمة هيساعدك هو من هناك .

لم أجد خيارًا إلا أن أوافقه الرأي ، سأحضر حقيبتى . . طبعت صورتها ووضعتها فى إطار خشبى صغير ، وطبعت أخريات لأضعهم معى حتى أسأل عنها لعل أحد يتعرف على صورتها .

أضع ملابسى داخل هذه الحقيبة السمراء ، نعم إنها أهدتنى هذه الرائحة منذ ثلاثة عشر عامًا أضعها معي ، لم أنسها أبدًا ، ولم أتخل عن هديتها .

كان طريقى مليئًا بأحلام . . لا أرى إلا صورتها فقط ، أخاف أن لا أجدها وأخاف أن أفقد قلبى معها .

عيونى تملؤها الدموع ، أريد البكاء وكيف سأبكى ومعى ركاب آخرون ! . . الدموع فى عينى كثيرة ولكن كيف أحبسها .

حبيبتي ، قادم إليكِ حتى وإن ذهبت للمجهول ، فأنا تائه دونك .

■■ انزل هنا يا بيه . . . . خد أى حاجة داخلة جوه .

الظلام يعم على هذه القرية ، وكأنها لا يسكنها أحد . . . اسمع صوت البوم فقط . . . وكلابًا تعوي ، اتصلت على سامح الذى اتفقت معه ليقابلنى وقد رحب كثيرًا .

■ ايوة ايوة أنا اه .

وجدته منتظرنى بإحدى سيارات النصف نقل . ركبت معه ، ووصلنا إلى بيته . . . لن أتحدث عن كرم الضيافة . . فبلادنا يملؤها الخير والخير هم ناسها وعزوتها حتى وإن أساء البعض ، فهنا أيضًا يجب أن نأخذ بعكس القاعدة بل يجب أن نغيرها ، إن الحسنة تخص والسيئة تخص أيضًا .

لم أستطع التفكير كثيرًا . . سألته عما حدث . . وجدت حديثه نفس ما قصه السائق . .

أصوات المزارعين تحب أن تسمعها فهم يكدون ، يعلمون ما ثمن هذه الأرض وما تعطيه من خير .

بدأ مشوار بحثى . . ولكن كيف أبدأ؟!!

تعرفنا على رئيس المباحث ومأمور القسم . . فقد رووا ما حدث من بحث عن رحمة . . لم يملوا من السؤال عنها فى مراكز الشرطة المجاورة لهم والمستشفيات .

مشينا أنا وسامح على هذه الترعة ، كنت أريد معرفة عمَ كانت تبحث . . فقد وصلنا للمقابر ، يسكنها الهدوء . . .

■ أيوة . . إحنا كنا شايفنها لحد أما كانت واقفة هنا وبعد كده اختفت ، أنا شكيت فى إن ممكن «أبو العزايم» هو اللى ممكن يكون خاطفها» .

■ أبو العزايم . . . . أنا سمعت الاسم ده قبل كده .

■ ما هو ده المجرم الساحر ، سبب مشاكل كتير والأستاذة حاولت توصل ليه .

■ وهو فين؟

■ للأسف محدش قدر يوصل له .

عدنا كما كنا نسير . . سمعت أحد المجاذيب ينادى ويهول «أبو العزايم مامتش أبو العزايم راجع ، أبو العزايم راجع» .

■ مين الراجل ده؟!

■ ده مجنون ، كان شغال مع اللى اسمه أبو العزايم ، وفجأة اتجنن والناس بتعطف عليه فى البلد .

زرت أهل الضحايا ، ليس المقتولين والمحروقين والمعذبين فقط . . بل من كان ضحية لعراء منزله من أسقف الحماية . . عرضة للهواء الطلق . . وعرضة للشمس والحرارة وعرضة للأمطار . . الكل كان حزينًا ، سؤالى عن رحمة أفقدهم الثقة فى حل المشكلة ، فهى لم تكن سمسارة عند مرشح الدائرة لتحل له مشاكله بل تنازلت وترفعت عن ذلك ، رقتها وحبها للخير أنساها مهمتها الأساسية لمهمة أسمى وأشرف هى الإنسانية . . ليس العطف هو عطف مال فقط ولا شرب ولا دواء أو ماء ،

بل العطف هو أن تجد شخصًا يضع يده على كتفك ليشعرك بالأمان والطمأنينة . . أن يكون كلام من أمامك أمانًا فى حد ذاته ، اجتاحت عقول هذه القرية بثورة من الفهم ، ولكن لم تكمل الطريق كان مصيرها مصيرهم . .

وكأن الشجرة قد قطفت زهورها قبل ثمارها . . فهى شجرة حتى وإن لم تثمر الآن ، فجذورها مثبتة ومتينة وإن كان الدخلاء هم أحد فروعها فيجب بتره وحرقه . . ما يقوم به هذا الشخص ما هو إلا بإرهاب النفوس والعقول . . يصيبهم بشلل الفكر والمعرفة . . يصيبهم بالضعف والاحتياج إلى طلاسم للأمان . . إنه الجهل يا سادة ، جهل أصابنا . . فالخوف جهل والمتاجرة بالدين جهل . . والمتاجرة بالقوى الخارقة جهل .

فلا يد قوية تعلو على اليد المؤمنة بشيء ، وعلاج الأزمة بدايته من النفس ، أن تحدث نفسك بأن علاجك من باب عتبة دخولك وليس من عتبة باب جارك .

أشبهها بمثل أب جهز لابنه جميع الخدمات وجميع الظروف وهيأ له الحياة ليعلو ولكن دون توجيه ، يوفر له الأمان وهو يخاف من تعاليم المدارس ؛ لأن من يعلمه لا يحتويه .

لماذا لا نصعد على المنابر ونعترف بالمشكلة ، لماذا نخاف أن نعلن عيبًا فينا . . التجديد هو الحل ، فلسفة الحياة ليست ثابتة فنحن على أشكال مختلفة بصفات مختلفة وبأديان مختلفة ومهام مختلفة . . .

أسمع أيضًا هذا المجذوب وهو يرهب أهل القرية ، بأن «أبو العزايم» سيرجع . . .

■ تعالى عايزك .

■ إيه أنت مين . . .

ينظر إليّ وعيناه مثل السكران . . كؤوس الدماء مجمعة بهما ، وينظر فى وجهى وحول عينيه تجاعيد وحواجبه يحركها مع حركات عينيه وعنقه انكمش الجلد به . يلبس جلبابًا متسخًا ويحمل عصا غليظة ، وجيوبه يملؤها أعقاب السجائر وفى جيبه العلوى علبة كبريت . . أظافره طويلة وأصابعه رفيعة ويلبس حذاء مقطعًا ومهلهلاً ، شعره تشعر أنه يسكب عليه زيت السيارات من كثرة اتساخه وكأنه مثبت بهذا الشيء المسكوب لكى لا يظهر طوله .

اشتريت له علبة من السجائر، وفطرنا سويًا. . .

أراه يحرك أرجله استعدادًا للرحيل، ويجهز عصاه ليتعكز عليها. .

■ استنى أنت مش هتشرب شاي؟

■ فرجت أوى كده

■ لا استنى. . . . .

أرى نظراته إليّ وكأنه يعلم أنى أريد سؤاله عن شيء، كسر كوب الشاى. . وبصوت عالٍ: «انت عايز إيه منى؟»!

■ عايز أساعدك، عايز «أبو العزايم».

■ هههههه كان غيرك أشطر. . . أبو العزايم بيظهر بس محدش بيشوفه.

■ أبو العزايم فين؟!

■ راجع راجع تانى. . .

مسكت جلبابه وثنيته بشدة عند عنقه، وبدأ انفعالى عليه: «فين هو. . رد هموتك رد. . . .».

■ فى الجبل فى بطن الجبل. . .

وبدأ يجرى بعيدًا والكل يشاهدنى وأنا أضع يدى على رأسي، كالمسروق منه شيء.

هناك مئات الجبال أين سأجده، سألت أحدهم فين الجبل إللى هنا؟. . ورا تبة التراب إللى قدامك دى.

وأرى خيال شيء عالٍ، مثل الظمآن بالصحراء يرى سرابًا.

لم يكن الأمر سهلاً كما وضّح لى سامح. . دخول الجبال صعب ووعر، بعيدًا عن الحيوانات المتوحشة والسامة، وبعيدًا عن حياة المطاريد. . فلا حياة بها. .

لا سير داخله، إلا على قدميك. . تمشى كيلوهات من الأمتار لتدخل.

لا أحد يعلم معالم الجبل بالداخل، ولا دروبه. . ولا يوجد دليل، تطوع العديد من الأسر ليدلونى على الطريق والسير إليه. . .

إنها صحراء جرداء بلا ماء وبلا حياة وبلا آثار لأقدام أو سير لأغنام . . لا توجد غربان ولا صقور ولا حتى صبار .

إنها بلا حياة.

رجعت ومعى انهزامي، لا أمل فى أن أجده.

لم يمر اليوم إلا ووجدنا منزل سامح يحترق . . اشتعلت النيران مرة واحدة به ، وأصوت مؤذن الجامع لغلق أبواب المنازل ، فالحيات تخرج من بئر منزل الساحر .

أرى مهازل ، ماذا أرى!! . . أحاطتنى الهموم . . من ينجد من!! . . أناس تطفئ نار المنزل والآخرون يدخلون بيوتهم ويغلقون الأبواب .

وقتها علمت أنى اقتربت من أبو العزايم . . . نعم نحن فى بلاد السحر . . إنه يهدد الجميع بالقتل وبأبشع الطرق . .

صاحب الجلباب الأبيض أراه وهو يضحك من بعيد وفى يده شعلة من النار ، يا ناس يا ناس «هو ده هو ده السبب» الكل ينظر إليّ .

وأنا أنظر لفراغ ، أقسم أنى رأيت شخصًا واقفًا هنا . . وكأنه ينتقم منا بضحكاته .

اعتاد أهل القرية لهذه المشاهد ، وكأنه إعياء أو قيء أصاب طفلاً . نام الناس فى هدوء . . هل اعتادوا على طلاسم الطلاق والأحجبة والرسومات التى بالدماء؟! هل اعتادوا أن تنهش قبورهم وتسرق جثث موتاهم وجثث الأحياء؟!!

■■ أذان الجمعة

أخرج من المنزل ويملأ القرية الناس للدخول إلى باحة المسجد .

لم ينهِ أمام المسجد خطبته إلا وقد صعدت المنبر تحته بدرجة . وأخذت مكبر الصوت . .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . . أنا لست شيخًا أو إمامًا . . لست متدينًا . . وإنما أعرف ديننا الوسطى . . أعرف الصلاة والصوم . . أعرف أين رحمة الله ، أنا خريج كلية الحقوق وأعمل بالمحاماة . . نتعلم العدل منها والقصاص ، جاء القانون ليعدل ويريح البشر من هموم الدنيا وشرع

الله القصاص فمن قتل يقتل، الله لا يحب القوم الضعفاء، ومن رأى منكرًا فليغيره. إن هذا الشخص المدعو «أبو العزايم» دجال كفر برب العزة وكفر بكتاب الله وكفر برحمته، ينتقم من أناس آمنين يُرعب عقولكم بسبب خوفكم.

لن يستطيع مركز الشرطة وحيدًا أن يداهم حصن «أبو العزايم»، كلنا يد واحدة يجب أن نداهمه ونكسر الحاجز الذى بناه من خوف سببه لكم.

صلينا الركعتين وكانت قوات الأمن جاهزة.. فقد أتى إمداد من المدن المجاورة لإنهاء هذه الأزمة التى طال أمدها وطال فسادها..

كان يجب أن نجتمع جميعًا، وأن يكون أهالى القرية فى المقدمة لنداهم الجبل.

لم تتقاعس الشرطة عن مهامها ومدت يد العون، كان المجذوب هو عين ولسان «أبو العزايم» هنا.. حُجز بالقسم واعترف عن المكان الذى يختبئ به.

وبدأ الناس فى التجمع أمام منزل أبو العزايم، وأرى مشاهد ترق لها القلوب.. يُقبل الآباء أبناءهم، ويطمئنونهم بالرجوع مع وصايا بحفاظهم على المنازل فهم رجال البيوت من الآن.

كانت الساعة الثانية والنصف بعد الظهر.. بدأت قوات الأمن فى التحرك ناحية التل بعربات الشرطة وبدأ الناس فى السير ومعهم الشوم ومصابيح..

الساعة تقريباً الثالثة عصراً نبدأ فى التحرك.. كمية «العفار» الخارج من الأقدام توحى بثورة فى الصحراء لطرد هذا الساحر.. إن الطبيعة تثور من أجل طبيعتها.

بدأ الليل يحل علينا.. سيرنا تعدى الساعة ونصف الساعة، وبدأ الجميع فى إشعال أجهزة الإنارة وقوات الأمن تتأهب لأى تدخل ولأى حادث قد يقع.

لا حياة بهذا الجبل بأى شكل قد يكون..

نرى أناسًا يجرون فوق هذه الصخور للدخول إلى إحدى المغارات، وبدأ الجميع فى التأهب، بدأت الشرطة فى إطلاق طلقات تحذيرية.

فلم يكن هناك فرد أو فردان، بل هم عشرات الأشخاص، انقسمنا مجموعات للدخول إلى

هـذه الخنـادق .

كانـت الحفـرة الأولـى خاليـة مـن أى شـيء وتملؤهـا الدمـاء الملطخـة علـى هـذه الصخـور ، إنهـا دمـاء متجلطـة . .

قلبى ينقبض ، أشعر أنها دماؤها .

بدأنـا فـى البحـث . . أسـمع طلقـات النيـران تضـرب فـى نواحـى عـدة . . وأسـمع التحذيـرات مـن الهـرب والفـرار لهـؤلاء المجرمـين .

ندخـل مسـرعين نخـاف فـراره ، أسـمع أنينًـا وأصـوات صـراخ . . مـن مـكان لا أعلـم أيـن هـو . . إنـه صـدى صـوت ، بـدأت امشـى وراءه . .

نظرت لجدران هذا القبو ، لعلى أستطيع أن أفهم منه ماذا حدث .

فـرو ثعالـب ورمـوز تلطـخ الجـدران بأيـدٍ وكفـوف . . إنهـا آثـار دمـاء لأبريـاء ، خيـوط هنـا وهنـاك . . . جلـود ثعابـين وقـرون للماعـز ورءوس لخـراف .

وكرسى خشبى عليه فرو . . .

إنه طفل مربوط مكتوفة يداه . . . .

وموقد نار مثل نار أفران الخبز . . بل مثل موقد لانصهار المعادن .

دخـل ورائـى الجميـع ، كان المـكان خاليًـا تمامًـا إلا مـن هـذا البـريء الـذى يلتقـط أنفاسـه بصعوبـة ، كان يرميـه بجـوار هـذه النـار ويربـط يديـه ورجليـه ببعضهمـا وهـو مستسـلم لـدوره .

أكمل طريقى بحثًا عمن جئت لأجلها . . .

الدموع تتزايد فى عيني ، لا أعلم لماذا . . لا أجدها . . ماذا أصابك ، أين أنت ؟!

أدخـل مغـارة أخـرى ، لأجـد شـخصًا يلبـس جلبابًـا . . إنـه الشـخص نفسـه ، ولكـن دون مصبـاح ، يالبشـاعة منظـره ، ضخـم البنيـة ، ذراعـه اليسـرى توحـى بقوتـه ، أمـا العجـب العجـاب أن اكتشـفت كفـه وزراعـه اليمنـى «مخيطـين» ومثبتـين علـى صـدره ومغطيـين بجلـد أسـود ، ونظراتـه يخـرج منهـا شـرور قلبـه ، يلبـس حـذاء بقدمـه اليمنـى فقـط ، واليسـرى يقـف عليهـا بمـد أطـراف أصابعـه .

يبدأ فى تحريك شفتيه ويخرج من خلفه اثنان أكثر ضخامة ويحملان أسلحة . .

لا أعلم ماذا أفعل ، ولتكن النجدة هم أهالى القرية . . سقط أحدهم متأثرًا بجراحه لتزداد طلقات النار عليهم .

سقطوا جميعًا إلا هو . . لم يخرج منه ذرة دماء واحدة ، شفتاه تتحركان ولم يكف عن تحريكهما أبدًا .

أدخل وراء جثثهم لأجد عددًا من النسوة ، لأضيء النور ويزداد الصريخ والعويل . . يطمئنهن عدد من أهل القرية ، إلا هذه الفتاة ذات الرداء الأسود تغطى وجهها بيديها . .

ينقبض قلبي ، وتنزل دموعي ، وتزداد ضربات قلبى وتشل حركتى . . يداى تهتزان ويسقط من يدى هذا الكشاف الصغير .

يخرج الناس جميعًا من فى هذا المكان ويفكون الحبال المربوطين بها ، لم أستطع أن أنظر إلى هذه الفتاة .

تضع يدها ولم تنزلها من عينيها ، نزلت على ركبتى . . أحرك يديها التى منعتى أن أحركها .

تزداد دموعى . . هل أخاف مما رأيته؟! أم أخاف أن تكون هي؟

عيونها بشعرها المفحم ووجها الشاحب ، نظرت فى وجهى . . ارتمت فى أحضانى . . تزداد رجفة ضلوعها .

حملتها وكأنى أحمل همًا.. أو حلمًا.

لم أجد جثته ملقاة وأنا أمشى . . رجلى يثقلها هذا الهم ، أين هو . . هل هرب من جديد؟!

■■ ارموه ارموه...

يكتفون يديه بحباله التى صنعها ويرمونه فى هذا الموقد . . . .

إلى الآن أشعر أنى فى مشهد سينمائي ، لا أعلم ماذا أرى . . هل أنا فى حلم أم فى خيال؟!

إنها حقيقة ، لقد مات ووجدتها من جديد ، لا أستطيع أن أسألها كيف حالك ، هل أشفق عليها وأكمل بكائي ، أم أحملها على كتفيّ لأنجد ما بقى منها ، لم يكن تعثر خطواتى بسبب حملها ، بل

لهموم نجدتها . . أتمنى أن أسرع لأنقذ براءة من مس شيطان .

كانت سيارات الإسعاف تنتظرنا ، ركبت معها السيارة . . وذهبنا للمستشفى ، كان كل شخص به همه ، ومع هذا أسمع أصوات زغاريد . . لقد انتهى كابوس «أبوالعزايم» . . لقد انتهت قصته ، قبض على من قبض عليهم .

حرقوا كتبه وطلاسمه بل حرقوا جميع ما فى المكان ، أشعلوا رائحته الباقية . . لم يتبق شيء منه إلا رماد ذكراه .

فى المستشفى ، بأحد مراكز العناية المركزة . . لم تدخل فى الإفاقة إلى الآن . . إنه مشفى أكاديمي ، لابد ألا أقلق .

انتظرها خارج المشفى ، لا أريد سماع أى صريخ . . فالكل فى انتظارها ، أنا الوحيد الذى لا أبكى وأشعر بالغربة .

هل نفذت دموعي ؟!

علمت أن الشرطة تبدأ فى التحقيقات مع من تبقى منهم أحياء ، لم يكن الساحر وحيدًا ، بل كانوا عصابة كبرى ، كونها لاقتناء الآثار . . كان يعمل لحساب أحدهم بتجارة المخدرات ونبش قبور الملوك .

لم يكن دجالاً عاديًا ، بل هناك فريق كبير . . وهناك من يوجه ومن يساعد ومن يسهل ومن يحمى ومن يخطط . لم يكن «أبوالعزايم» سوى أداة للتخويف والتجويع . جميع من كانوا أحياء اختطفوا منذ شهور من قرى وبلاد أخرى ، أبو العزايم كان يخطط ويبنى تعاويذ لإله السحر ليرضى حارس الجبانة . . . نعم . . استخدم كل الجثث لفتح الرصد بدماء ليرضى الجان ، كان يقدم القرابين لآلهة آخرين ؛ ليرضوا عنه ويقدموا له هدايا القبور .

ذكر المجرمون أمام رجال الشرطة البواسل ورجال النيابة العادلين ، أسماء لم أعتقد يوماً ، بل لم أشك للحظة أن يكونوا بين من يقتلون ويشردون ويتاجرون فى المواد المخدرة والأعضاء البشرية ، واختتموها بالآثار تراث بلادنا ، كل ذلك من أجل المال ! ! فكان أصعب شيء علىّ أن تنال منك ثقتك من شعارات وأقاويل وتعليق لافتات المثل العليا . . فلماذا لم يفكروا ولو للحظة فى جنودنا

وإخوتنا وهم يضحون بأنفسهم فداءً للوطن وفداءً لأمننا!! لماذا لم يفكروا فى ممثلينا أمام دول العالم وصورتهم ومكانة مصر بتاريخها العظيم المشرف؟! لماذا لم يفكروا فى استشهاد رجال الشرطة فى الليل بسبب إجرامهم وتجنيدهم لمجرمين لينالوا من العدالة ويشبعوا طمعهم.

أما المفاجأة الكبرى فهى أن يذكر اسم «على بخيت» ولكن لا دليل عليه إلا أن ذكر اسمه بتجارة المخدرات، هل سيهمش اسمه لعدم وجود دليل، وهل سيؤخذ بشهادة شهود اعتادوا الإجرام والقتل؟!!.. «أعلم أنها ستكون إجابته ودليل براءته»، على بخيت أحب أن يتخلص من رحمة ليس إلا لأنها علمت الكثير بسبب تنصتها وأنها عرفت أكثر من اللازم، خطته كانت غاية من الروعة بل لا تخطر على عقل مجرم بأن يرمى فتاة عذراء القلب داخل حجز من المجرمين لمغتصبى البراءة.

لقد قرأت ما كتبته عند ذهابها لإنهاء إجراء كان أمرًا من رئيسها.. هذا المحامى ذائع الصيت، فكانت الشحنة لشاى قادمة من الخارج، بعد أن وجدت مدير معمل التحاليل يطمئنها بألا تقلق فالأمر اعتادوا عليه.. لم تفهم فى البداية.. كانت أعشابًا مسرطنة منتهية الصلاحية دخلت لصالح رجل أعمال ذى مقام رفيع الآن، بل عضو من أعضاء مجلس الشعب.. علمت أن الرجل نفسه.. هو هو.. من يدخل اللحوم الفاسدة التى تسكن بها الهرمونات والمسبب الرئيسى لمرتادى مستشفيات السرطان. هو ليس رجل أعمال، بل رجل السرطان، لم يكف بخيت عند هذا الحد، بل كان يسهل تجارة أدوية المسكنات لمن سبب لهم المرض اللعين، ما أعرفه الآن هو حديث فرج السائق الذى لا يسمع ولا يتحدث.. إلا أنه أصابته حالة من الصدق عندما صارحنى بأن رحمة علمت الكثير والكثير.

«الكرب الأسود»

لـم تفـق إلـى الآن، ازداد غيابهـا عـن الوعـى طيلـة تسـعة أيـام!.. فـى سـيارة إسـعاف وعلـى جهـاز تنفسـي، يركـب معـى سـامح وأبـو أحمـد لإيصالهـا للمستشـفى.

لـم نجـنِ مـن انتقالنـا إلا تعـب جسـدها لمشـقات الطريـق، شـهران وهـى غائبـة عـن الجميـع.. لـم يزرهـا أحـد ولـم يكـن بجانبهـا أحـد!!

هل اقترفت ذنبًا من أجل إنسانيتها.

مـن أجـل بطولتهـا ورسـمها لشـمس العلـم والفهـم، يئسـت مـن أن أسـمع صوتهـا وأرى عينيهـا مـن جديـد...

أراها من خلف الزجاج كل يوم، وبيدها محاليل كثيرة..

أخـاف أن تغيـب شـمس محبتنـا، لا تتركينـى وحيـدًا.. كنـت جاهـلاً بحبـك، علمـت الآن كـم كنـت أحبـك وكـم أعشـق أنفاسـك.

أفيقى ولا تتركينى تائهًا فى هذا العالم، خذينى معكِ ولا تتركى قلبى وحيدًا.

مرت الأيام..

زارها إخوتها، كانوا باكين.. عرفوها بعد أن ماتت عيونها.. بعد فوات الأوان..

أدخل عليها لأقبل يديها وأضع رائحتى التى أهدتها لى لعلها تتذكرنى بسببها.

عيناها تتفتحان قليلاً، أصابعها بدأت فى التنفس من جديد.

طلب الطبيب أن نخرج جميعًا، وطلب نقلها إلى غرفة خاصة..

بـدأت اسـتعادة وعيهـا قليـلاً، تفيـق قليـلاً وتنـام أكثـر.. لا يهـم، حمـدًا لله أنهـا بخيـر، كفانـى أنهـا ظلـت علـى قيـد الحيـاة وسـتعالج اليـوم أو بعـد مـرور أزمنـة.. لا يهـم.

لـم يهتـم الأطبـاء بهـذه الكدمـات بنواحـى جسـدها، ولا آثـار الجـروح، ولا حتـى تـآكل جلدهـا.. كل تلـك الأمـور رأوهـا بسـيطة.

أزالوا المحاليل واحدًا تلو الآخر، يطعمونها أدويةً.. ومساحيق لحوم وأنواع أخرى.

منعوا الزيارة عنها من جديد؛ لأن الحالة لم تستقر، الصمت كان مسيطرًا عليها، ترجيت كل من لبس رداءً أبيض أن يجعلنى أراها.

افتح الغرفة، وأراها شاردة على كرسى متحرك تشاهد الأشجار من النافذة.. عيناها ثابتتان لا تتحركان، «رحمة فاكراني، أنا عمر.. أنا حبيتك كتير، واتعذبت أكتر بسببك، كانت الظروف وحشة والأسباب ما كنتش متوفقة، سامحينى ولو فى يوم زعلتِ منى، مش هسامح نفسى ولا يوم، طول ما أنت مصدقتيش قلبي، يشهد عليا ربنا أنا قد إيه حبيتك وقد إيه أتمنيت أكون معاكِ كل يوم، كنت فى بالى دايمًا، عمرى ما نسيتك.. حبيتك من أول ما شوفتك، حبيت صمتك وقتها.. مش عايزك تكونى ساكتة دلوقتي، اسألى كل حاجة عني، اسألى قلبك قد إيه كلمته.. أسألى النجوم عني، قصتى كلها علشانك».

لم تلتفت إليّ، كان نظرها ثابتًا فكما دخلت خرجت، البكاء يسيطر على إخوتها.. هل دموعهم لكى تغفر لهم، أم هى دموع اشتياق وتعفف.. لن يستوعب عقلى أن هذه الدموع دموع للتماسيح لإرضاء الحاضرين.

اتصل بى الطبيب، لأحضر له فى المستشفى، كان يحاصرنى الخوف من موتها كل دقيقة تمر على بالطريق.

■ استاذ عمر، رحمة فى حالة متأخرة نفسيًا، إحنا أجرينا عليها اختبارات عدة من إشارات عقلية ورنين وخلافه على المخ، وأجرينا اختبارًا للأعصاب، وطلبنا منها الكتابة عند رفضها للنطق، أن تكتب بياناتها وبيانات ذويها. هى معندهاش أى مرض عضوى نهائى.. للأسف عندها صدمة أو بمعنى آخر هزة أو جرح نفسى.. طبعًا بكل تأكيد بعد الحوادث اللى حصلت ليها، الصمت التام اللى عندها ده عبارة عن مرحلة أولى، والحالة هتتطور لو مفيش مختصين يتابعوا، يعنى حضرتك مثقف ممكن أشبهلك اللى حصل معاهم زى متلازمة الناجين من محرقة هتلر وزى برضو «مرتجفى الحرب»

اكتشفوها بعد حرب فيتنام للجنود الأمريكيين بعد حرب أفغانستان واكتشاف اضطرابات نفسية خطيرة لهم، أنا خايف من العوامل اللاحقة على الصدمة؛ لأن نظرتها مش هتبقى متوافقة كما كانت قبل الخطف أو قبل الأحداث، متستغربش أن بشبهلك حالتها بحالات من خرجوا من الحرب.. هى كانت فى حرب فعلاً.

أخاف أن تفكر فى الانتحار، والانتحار هنا لسبب غير مرضى نهائى بس فى الأساس بسبب الصدمة، علشان كده لازم يكون فى متخصصين مشرفين يتابعوا الحالة بكل جدية، ويكون فى دعم نفسى من أصدقائها وأقاربها. وقبل ده كله لازم نهتم بالروحانيات.

■ مش فاهم.. روحانيات حضرتك تقصد إيه بيها.

■ نكلمها عن الدين وعن إن اللى حصل شيء ممكن يحصل لأى حد، عايزك ترجع ثقتها الإيمانية، هى غابت عن شمس الحياة الطبيعية ودخلت فى كرب أسود مع رجل جاهل ومشعوذ، اللى شافته من طقوس وتعذيب.. أثر على عقلها وعلاج رؤية السحر وبشاعته بعلاج الروح، هوصلك بمدير مستشفى نفسى مهنى أكاديمى على أعلى مستوى وده اللى لازم نلحقه.. لازم الحالة تكون متابعة جيداً، هى طبعًا رحمة اللى طلبت فى ورقة إن اللى يتابع حالتها أنت بصفتك زوجها!

لم يشغل بالى ما قاله لى أكثر ما قالته رحمة بأن ألصقت بى أنى زوجها، لا أعلم ما فى فكرها...

هذا الصمت لا أراه فى شفتيها فقط، بل فى عينيها وحركتها، الطبيب يرى شيئًا لا نراه نحن، بدأت فى التواصل مع مدير المستشفى الذى ستنقل إليه.

بدأت فى أخذ ملفها المرضى والذهاب للمستشفى، فبعد موافقة الطبيب المختص، طلب أن تأتى رحمة ويتم الكشف عليها والتأكد من وجود علامات مرضية واضحة وأن يكون المرض يهدد حياتها، ويجب أن نأخذ موافقتها كتابيًا مادامت صحتها العقلية فى ثبات، وأن يكون توقيع المريض على ملف

العلاج الطبى .

بالتأكيد كانت صفتى هنا كمحاميها الخاص ، أتذكر هذا التوكيل الذى عملته لى وتركته فى درج الذكريات . . . .

أنهيت جميع الإجراءات ودخلت رحمة المشفى ، كانت تنظر لى فقط . .

ازدادت أيام زيارتى يومًا تلو الآخر ، كانت ترفض جميع الزيارات . . حتى زيارة أختها وأخيها ، من كانت ترحب بهم أنا وعم أبو أحمد هذا الرجل الأب .

كانت لها روحها الخاصة حتى مع الأطباء والممرضين ، كان الجميع يحبونها ، رحمة كانت تستجيب للعلاج ولم ترفضه . . .

أقطف الورود لها كل يوم ، ونجلس فى ساحة المشفى ، كنت أحدثها عما سبق . . أحدثها عن روحها ، وعن جمالها وعن علمها الغزير ، عمن أثرت فيهم وعن الخير الذى قدمته للكثيرين ، عمن يدعون لها كل يوم ، عن إنقاذها لآلاف الناس فى تلك القرية . . عن حزن إخوتها وعن ودهم وعن ندمهم ، عن جدران منزلها الذى ينتظرها ، وعن النيل الذى اشتاق لحكاوينا .

ظهرت ابتسامتها ، وظهر وجهها كالبدر ، بكيت مع أول ضحكة ، حيث تذكرت هى عندما التقينا أول مرة . . وكان حديثنا الضحك والابتسامات ، ما أجمل لغة القلوب !

كانت تعشق دائماً مغنيًا وحيدًا وتملأ غرفتها بألبوماته ، حاولت أن أجمع لها كل أغانيه على جهاز جديد اسمه «mb3» . . .

وضعت السماعات على أذنها ، حركت يدها .. ده عمرو دياب . . .

هززت رأسي ، مستمتعًا بملامحها وهى تسمع كلماته وكأنها تسكن عالمًا آخر ، أتذكر عندما ذهبنا إلى حفل بيانكى بالعجمى عام ١٩٩٨ ، صرخت عندما سمعت «دياب» فى بداية أغنية «خلصت فيك كل الكلام» .

كانت تذهب خصيصًا لشراء شرائط الكاسيت من عم منصور صاحب محل شرائط الكاسيت بأحمد بدوى بشبرا .

تركتها مع معشوقها، أعلم أنها ستخرج مما هى فيه.

وفى اليوم التالي، كعادتى أدخل وأجدها فى انتظاري، ولكن هذه المرة لم أجدها جالسة تحت هذه الشجرة ذات الفروع الكبيرة، سألت عنها الممرضة..

جاية حالاً أنا بلغتها وهى تضحك فى وجهى وكأن شيئًا جميلاً تفعله رحمة.

افرد ذراعيّ الاثنتين وأنظر للسماء، وقلبى يناديني لأنظر أمامى لأجد رحمة تحمل فى يديها هذه الوردة التى تشبه الوردة التى أهديتها إليها منذ زمن.

جلست بجواري، وقلبى يكاد يكسر ضلوعى من كثرة ضرباته.

■ ممكن أقولك على حاجة.

هزت رأسها باستحياء وكأنها تعلم ما سأقوله.

■ تجوزينى.

وكانت الكلمة الأولى التى أسمعها منها.

■ موافقة

■ بس فى شرط

ضحكت لتسمع شرطى.. «موافقة» من غير ما أعرف

■ صالحى إخواتك.

لم يصدق إخوتها حديثى طلبت من أخيها أن يجلب مأذونًا وهو قادم، وبعدها اتصلت بأبيها.. نعم إنه أبيها الرجل الطيب أبو أحمد.

لم أصدق، إنها وافقتني، وكنت أريد الساعات أن تجري، كى لا تغير رأيها.

وقتها تذكرت هذا الفستان الذى رسمته من سنين، ووعدتها بأنى سأجلبه لها بعد خروجنا من هنا، فقد بقى القليل.

كالعادة قرأ الشيخ آيات القرآن والحث على الزواج والعفة، وبدأ فى كتابة اسمينا.. ووضع

الصور، وبصمنا على صورنا . . وشعرت أنى أكتب عهدًا جديدًا لنفسى . . وجاء بند المؤخر ففكرت كثيرًا ونظر لى الجميع لمَ الصمت، «٢٠٠٠٠٠» أيوة . . مائتا ألف جنيه .

كان ينقصنا شاهد، فكان أخوها وكيلا وأبو أحمد شاهد . . أخرج مدير المستشفى بطاقته وبدأ فى التوقيع على العقود الثلاثة .

وقتها ارتمت فى أحضاني، اقتربت منها أكثر، فالآن لديّ الشجاعة لأن أصارحها بكل شيء وأقبل يديها ورأسها .

يوم والآخر . . خرج تقرير الطبيب بأن رحمة يصرح لها بالخروج . . فهى الآن فى حالة مستقرة .

أستعد لكى آخذها إلى عش الزوجية، ونبدأ حياتنا التى توقفت قليلاً . . هيأت منزلى ورتبته لاستقبال «الملكة» .

فلم يبق إلا ساعات لأستقبلها هنا فى قصرها .

كنت أجهز لها قاعة الفرح والفستان ودعوت كل معارفنا لحضور الزفاف، ألمع حذائى وأعد قميصى الجديد، وأحجز يومين فى أحد الفنادق .

وأجهز هديتي، أعلم أنها ورقة . . فهو شيء أحببت أن تراه كثيرًا، حاولت كثيراً وكثيراً، لأجد أى صورة لوالدتها . . لم يكن سهلاً عليّ أن أجد طريقة للعثور على صورتها . . كان والدها مغرمًا بالتصوير هذه الصور الكلاسيكية . . لأجد اسم ومكان الاستديو خلف أحد صوره، أشهر أماكن التصوير فى وسط البلد، بل وفى القاهرة . . أخذت صورة والدها وتعرفت على زوجة أبيها لكى لا يختلط على الأمر، وعلمت تاريخ زواجهما . . طلبت من صاحب الاستديو أن نبحث فى أرشيفهم على هذه الصورة، فهم يحتفظون بجميع الصور . . لم يكن الأمر سهلاً بهذه البساطة التى أحكى بها . ولكن وجدناها، لم تختلف عن أمها كثيرًا .

أفكر أفكر . . كيف سأهديها لها . . الصباح رباح . .

أدخل باب المستشفى وأخبئ هذه الصورة فى جيب البذلة الداخلي، أجد الجميع يهرب مني، وكأنى مرفوض الاستقبال أو جئت فى ميعاد لغير الزيارات .

أدخل غرفتها، لم أجدها..

ـ متعرفيش فين اللى فى الغرفة دي؟!

ـ حضرتك روح اسأل عنها هناك....

من وراء لوح زجاجى سميك، أراهم وهم يضعون جهاز صدمات القلب ويحاولون...

رحمة ماتت...

أدخل عليها، قومى يارحمة.. سبتينى.. تانى، أغطى وجهها بالقماش الأبيض بلون قلبها الطاهر.

تركت الجميع خلسة، وأخذت شريطًا كاملاً من المهدئ، خدعتنا جميعًا وخدعت الأطباء.. خدعت حتى التقارير الطبية.

لم أخف من البكاء وقتها أمام الجميع.. فحبيبتى ماتت...

وهم يجهزون أوراق تصاريح الدفن، لأجد الطبيب ينادى علىّ لوجود وصية تركتها لى وظرفاً مغلقًا وطلب منى التوقيع لاستلامه.

أخذته ووضعته مع صورتها القديمة.

ظننت سلامنا أمس لتحديد يوم بلقاء جديد، ولم أكن أعلم أنه الوداع الأخير...

أرى من أحب فى تابوت، أخاطب «أصم» بلا حديث.. فهو لم يستأذن وأنا لم أشبع من وده.

تركتِنى كما تركنى جدى أحب الأحباب.. أعلم أنه كان يحبنى، وأعلم أنه كان «يشد» على لأتذكره! هناك شدة تبقى لتكون سعيدًا، وهناك شدة لا تروى سوى العطش.

رقدت فى سلام، رقدت بمقابرنا لحين يأتى يومى وأكون بجانبها.

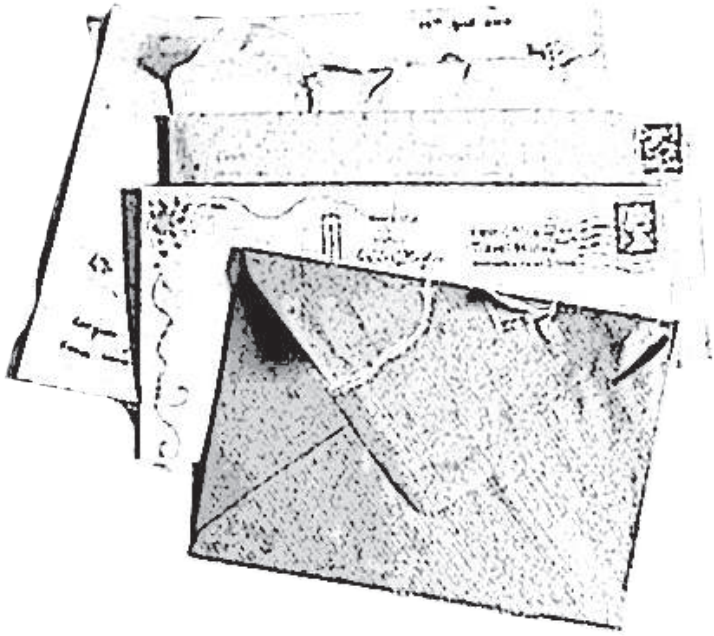

«إدمان من نوع خاص»

افتح رسائلها ووصيتها لى:

«أوصى أنا رحمة سامي، لزوجى عمر مهران، بثلث تركتي».

وأفتح الظرف المغلق لأجد العديد من الأوراق عليها آثار دموعها:

«عمر، قد أصابنى إدمان...

إدمان من نوع خاص محيّر للعقول وحيّر من حولى.

حير من عاش معى مسيرة عمرى..

فلا علاج ولا مصحات لمثله ولا يوجد دواء كيميائى يجعلنى أهدأ..

ولعلى خضت تجربة للعلاج على يد عشاب يدعى أنه طبيب روحانى...

أعشاب للنوم تجلب لك النعاس ومهما انشغل تفكيرك همًا وهمًا سيباغتك النوم لا مفر.

عزمت على احتسائه بمره.. فما رمانى على المر إلا أنت...

لم يجد نفعًا ولم يجد جديد.. العشب أكمل جميله لنصف الطريق بالنوم ولم يكمل سيطرته على أحلامى.. أستيقظ مفزوعة ومتحيرة، تأتى لى غيظًا بأحلامى...

لم أعتبرها يومًا كوابيس، بل هى مفازع جميلة على قلبى.

وأنتكس من جديد وأفكر ويبدأ فصل جديد لعام جديد بساعات مشابهة وأيام متتالية ومتناسقة فى ترتيب الأحداث، نستطيع الحديث بشجاعة وتكون الحلول بأيدينا ولا نملك وسيلة الإقناع، كما يقولون من القلب للقلب إلا عندما تتحكم الأحداث بنا.

مثلى كمثل ابن سينا أبو الطب والفلسفة والأدب وغيرها من علوم الإنسانية، كرجل اجتمعت فيه صفات معظم العظماء بمجالهم.. كان قاموسًا لعدة من اللغات.

عندما مرض مات ولم يشف ولم يستطع علاج نفسه ولم يستطع غيره علاجه، ليس لجهل

الآخرين ولكن لتشبع مرضه بفكر صاحبه ومستوى صاحبه . . .

هاهنا نصل لدرجة من الثقة بالنفس لكننا عند أول عثرة نسقط بفعل حقائق وثوابت نعلمها . . نعلم حلول مشاكل عصيبة إلا عصيبتنا . . حتى ولو كنا نعلم ما الحل ولسهولته لا نستطيع أن نصدقه . . ليس رفضًا للحقيقة ، بل بما صنعه هذا العقل من أحداث صدقها وتشبعت شعيراته بفكر نما به . .

فمن الصعاب أن نصدق ما لا نحب تصديقه ولا نقتنع حتى بما هو ظاهر فى عز صيفنا هذا . .

نشتاق ونحن نعلم أنه لا اشتياق لمفارق ونبرر ما لا يجب أن يُبرر . . نصنع أطيافًا من الأحداث لنكمل المسيرة . .

راودنى سؤال يومًا : لماذا أضحى ومن حولى من لا يضحي؟!

سؤال تقليدى مثل عابر السبيل . . ولكنه حقيقى من كثرة بساطته نسفه من شأنه .

برر عقلى وقتها بإجابات لا بديل لها . . لا أتذكرها ولكنها كانت مجحفة جعلت قلبى يصبر ويصبر لسنوات طوال مع سماعى لاشتياق المحبين ، بنغمات الموسيقى كنت أصبر وأتصابر من أجل نيل هذا العشق الأعمى . . فهو أعمى البصر والبصيرة . . لا قلب له ولا نبض ولا دماء . . بل هو أصم كصنم مصبوب من الأسمنت . . يظل أعوامًا وأعوامًا متكاتفة أعمدته إلى أن يأتى زلزال تنهار الأدوار التى بناها ظنًا منه أنه خالد .

هنالك تضحيات قدمتها إليك . .

لا أعلم ما هى قيمتها لك وليس خجلاً ألا أقصصها . . ولكن لن يعلم مقدارها إلا النفس . . نفسى أنا . . جعلت نفسى حكرًا عليك .

فعندما تعطى حبيبًا لك . . أعطه الاختيار الصعب . . لا ترسم زهور روحك فقط ، بل ارسم معها أشواك الحياة وأعطها خيارًا أولاً وأخيرًا لا بديل له . .

لا تخف . . لن يتركك . . بل سيفكر فى تركك إن غاب عن عقله ما تمناه فيك من مزاهى الحياة . . فهو لم يخترك أنت . . بل اختار مجموعك ليكن مجموعك أنت أداة يزين بها حياته .

ماذا أصاب الحياة . . هل أصابها عجز أم نحن العجزة ، نشتاق للوحدة ولكن من يسكنها معنا إن

كان اشتياقنا مبنيًا على فراغ.

وقتها ستكون وحدة قاتلة بالمعنى الحرفي، أما الأخرى فهى وحدة الراحة.. لترح عقلك وقلبك ونفسك.

ماذا تبقى منى إلا صورة.. قد يشاهدها الجميع وأنا بعيدة أو مغتربة أو ميتة..

هل ستتذكروننى بهيئتى التى أنا عليها الآن، هل سيجلس من أحببتهم وتذكرتهم لأيام ولسنين ويسرحون شاردين؟.

لا أعلم.. ولكنى تركت صورتى للأيام.

وأنا فى هذا النفق المظلم.

كنت أجد كل يوم نورًا خافتًا، لا أعلم أين أنا، أنام على دفء الظلام، هذا الساحر الغريب الذى نال منى بعد ذلك، لم أجد بابًا للخروج والهروب.. ظللت متشبثة بهذا النور.

لا أعلم من يراقبنى ومن يتبعنى ومن يهتم الآن لغيابى.. ومن يضحك ومن يأسى ومن مثلى فى مأساتى.

وجوه كثيرة قابلتها وأعطتنى خيار الصمت.. الكل ينتظر موته! فماذا تنتظر من مريض مشتاق لدواء لم يصفه الطبيب ولا الأحباب، كنت أشتاق إليك يا عمر وسط كل هذه المهالك وكل هذه العواطف.. كنت أعاتبك بكلامى السابق، بداية رسالتى أعلم أنها صدمتك.

رأيتك يومها، لم أجد شكرًا لك إلا أن أرتمى فى أحضانك، لقد شعرت بالأمان وقتها.. كنت أعلم أنك آت، ولكن متى وأين وكيف.. لم أعرف.

أنقذت روحى وجددت حياتي، لا تحزن إن مت، أنهى قصة لحياة قد أصابها سحر.

كنت حبيبى وستبقى حبيبي».

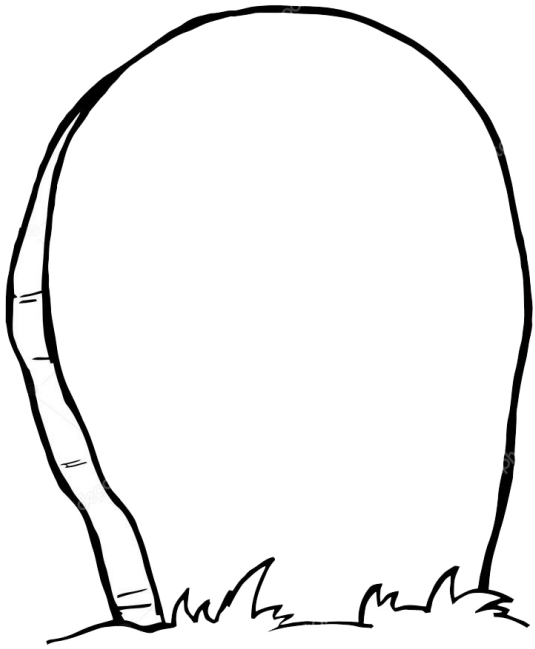

«نوتة الرحيل»

زاد الذنب ذنبًا بعد أن ظلمتها، لم أحترم يومًا مشاعرها، أعترف.. لم أسعَ لأثبت لها حبي، كنت طائشًا..

أقف على باب قبرها، تمنيت لو أسكن بجوارها، روحها تلتقى بى هنا. عن حب دام سنين، وعن عشق لم ينتهِ، عن شخص ملك قلبي، اعتقدته بشرًا وهو ملاك يسبح فى روحى.. أسأت.. الفهم يوم وأسأت الود وأسأت لنفسى.

كنتِ جائزتى التى أسعى إليها..

أتذكر مشهد يديكِ والقلادة التى سأتلقاها يوم تكريمى وأنت كرمتِنى أمام الجميع، لم تبخلى علىّ حتى بعد هذه المدة بحبك، نلت شرف أن أكون زوجاً لكِ حتى وإن لم تكتمل القصة..

كنت أريد النداء والصراخ فى الناس، حبيبتى تركتنى...

وعجبًا قبل صراخي، من سيسمعنى من سيشعر!!

ولمن سأقول ولأجل لمن...

وإن كنت فى سوق الرقيق والنخاسة وبيوت الشعر الجاهلية سيعتبروننى شاعرًا وأنال بعض الدراهم لسوء الأداء فى الإلقاء ماذا كنت سأقول؟!

هل سيطلقون علىّ الشاعر المجذوب أو الفاشل.

سأصرخ ولكن هل سيواسينى الموتى هنا؟!

لم أغرها بشيء يومًا.. فلا أملك شيئًا إلا قلبي!! ساومتها على نبض حياتى. وعندما دعتني، سبق الميعاد، أصبحت مثل من مات على صخرة الحب وهو يبكى.

فلو لم يتجرأ الأصمعى على شهوته فى الرد على أبيات الشعر، لما تجرأ هذا الفتى فى كتابة آلامه.

«وكيف يدارى والهوى قاتل الفتى.. وفى كل يومٍ قلبه يتقطع»

ظن الأصمعى وقتها أن من كتب هذا منافسه فى الشعر، لم يكن يعلم أنه كان ينافس قلبًا وشابًا طعن نفسه بكلمات ليلقى مصرعه حول منافسة الآخرين.

لماذا لا ينصح الناس الناس بالصبر، ولماذا يهون على الناس خفقان القلوب، إنها تحب.. ليس جريمة أن تحب.

لم ينصحنى أحد بأن أذهب إليها، بل شجعنى الجميع، بعدم سؤالهم عنها. لم يواسنى أحد على مصيبتى التى كانت.

أخفيت عشقى داخل أنفاسي، حتى لم يظهر عليّ إلا حين كنت أرى صورتها أمامى وأنا سارح فى حياتى معها.

لماذا صورها الجميع بأنها غابت عنها الأحاسيس، وليست كما رأيتها أول مرة، عندما كنت صاحب قلب لطفل مراهق.. أضحك وأضحك وتزداد ضحكاتى يومًا تلو الآخر.. عندما تشبث عقلى بأعينها... وأنها كانت الأولى وليست الأخيرة، وأنها بلا عقل وجسد بلا قلب...؟

أما أنا فقد كانت لى الأولى وآخر من أنظر لهم بقلب يعشق.

ولأتذكر كم كنت فرحًا غيورًا عليها.. أخاف أن يراها سواى...

أعلم أنكِ فى مكان آخر الآن.

وآمل أن تسمعينى.. فنحن فى زمن أصبحت فيه الأجساد ميتة والأرواح باقية.

حتى وإن بقيت صورتك.

ومرت السنون، جئت لأخبرك أنى اشتريت لكِ شقة أمام مكانك المحبوب ليطل على القصر، تمنيت أن أراكِ بجانبى.

سأعرفك على أبنائى رحمة وسامى.. نعم تزوجت.. إنها سنة الحياة، لم أنسكِ ولم أنسَ قلبك الخالد ولم أنسَ كلماتك التى أوصيتِنى بها، علمتينى معنى الحب والود.. اقتنيت كل ما كنت تحبينه، وصيتك نفذتها ولم أتنازل عنها، لقد أخرجت باقى تركتك وقفاً بقرية أبوالعزايم «مجمع رحمة الخيرى الطبي».

أتمنى الشبع منكِ وكأنها آخر نظرة لصورك . . أقلب كل صورة تمر بألبوم ذكرياتك ، لم أستطع الشبع منها .

رحلتِ وتركتِ لى بصمة يدك وأنت فى أحضانى . . لن أرسم الورود الآن فنحن سنعيش فى جنة الورود . . لا تقلقى . . هناك لا توجد ضغائن . . تذكرينى وسامحينى إن خذلتك يومًا .

عشقت الموت لأجلك وسأكررها . . ولا أقلق على حبيبتى ابنتى . . فلها رب وما أنا إلا سبب .

لم ننساكِ جميعاً .

«الحلقة المفقودة»

■ هو فين غرفة المريض ده، دخلوه الانفرادى...

■ عايز الملف المرضى والإدارى.

كان الحديث عن شخص يحاول الهرب.. وهو الآن فى الحجرة المغلقة ذات الشباك الحديدى والمرتبة الأسفنجية والوسادة المصنوعة من الخامات نفسها التى لا يستطيع المريض أن يستخدمها فى شنق نفسه أو خلافه أو التسلق أو أى شيء قد يضره..

■ يا دكتور، ملوش أى بيانات.

يدخل الطبيب الغرفة ٢٥، ليجد لفافة من القماش مغروسة تحت المرتبة التى ينام عليها المريض.

■ ومين سايب، كل الملايات والمخدات دى هنا، وإيه الكيس ده، مين كاتب ده كله؟!

■ هو كان طالب ورق، علشان عايز يرسم، جبناله ورق.

خرج الطبيب لمكتبه وهو يضع سماعات النبض على كتفه، ويغلق الباب عليه، وينادى على التمرجى.. ليؤكد عليه ضرورة الحرص على عدم وجود أى شيء يستطيع المريض الهارب إيذاء نفسه به.

ويبدأ الطبيب فى فتح الأوراق المخبأة داخل الكيس القطنى للوسادة.. الأوراق المكتوبة بخط حسن، لرجل متعلم وليس جاهلاً...

يحرك هاتفه، ليتصل بالقطاع الإدارى مرة ثانية، ليحاول أن يصل.. متى دخل هذا المريض إلى المستشفى، ويأمر بتحضير الملف العلاجى لهذا المريض.

وضع نظارته على عينيه، ليفتح ورقة تلو الأخرى.. إنها رواية، بل قصة حياة محامٍ «اسمه عمر مهران».

تمت بحمد الله،،

القاهرة ٢٠ سبتمبر ٢٠١٩ الساعة الثانية فجراً

«سطور منسية»

مهما أصابك..

تحلَّ بصفات من أحببت أن تقابله؛ لتقابله.

...

«رسالة بلا عنوان»

حروف اسمك بقلبي.. أما ابتسامتك فسبب عدم هزيمتي.. نعم أنا العاشق بلا سبب.. ومن منا يختار وقدره كتبه صاحب الجمال؟!

الآن تركت كل شيء لعلّي أسلم من ظنون الدنيا.. وأكون لك وحدك.. بصمت عيونك وعدتِني أننا معًا إلى آخر العمر.

الإهداء

إلى أبى.. قرة عينى، وأمى الجميلة.. وما أجمل منها.. واسمها عائشة.. أطهر وأنقى نساء الأرض.

وإخوتى.. سندى بالدنيا: جويلى ومحمد السيد، أما صديقى الوفى مصطفى بهجت.. إن كان للوفاء تصوير فقد صوره.

والشكر لأستاذىّ.. مصطفى زكى «الكتبجى»، وحسام أبو العلا.

وأستاذى ومعلمى وأخى الأكبر.. الدكتور سمير شعبان صالح - فقد كرمنى بتقديمه لهذا الكتاب.

الكاتب فى سطور :

عصام الدين جاد

■ تدرب منذ صغره بالصحافة ، مبادرة نقيب الصحفيين الأسبق الكاتب الصحفى مكرم محمد أحمد لأبناء الصحفيين «الصحفى الناشئ» ، حيث تبنتها مؤسسة دار الهلال - مجلة سمير عام ٢٠٠٨م .

■ المساهمة والإشراف على صدور مجلة «صوت التوفيقية» أثناء مرحلة الثانوية العامة الصادرة عن مدرسة التوفيقية الثانوية بنين .

■ تدرب بجريدة وموقع المشهد عام ٢٠١٢م .

■ تدرب بجريدة الأحرار عام ٢٠١٣م .

■ تدرب بجريدة الصباح والمستقبل عام ٢٠١٣م .

■ عمل بجريدة وموقع «الكلمة» منذ عام ٢٠١٤م .

■ ساهم فى تأسيس مجلة «طلع النهار» الصادرة عن مؤسسة العالمية «الكلمة» عام ٢٠١٦ .

■ لاعب جودو بمنتخب نادى الزمالك لعام ٢٠١٦ .

■ ساهم فى إطلاق نشاط دار العالمية للصحافة كدار نشر عام ٢٠١٨م .

■ صدر له كتابه الأول تحت عنوان «مذكرات مراهق» عام ٢٠١٨م .

■ تدرب بمكتب المستشار محمود خالد وعلى الكتبى المحاميين .

■ إطلاق مبادرة الكلمة لتأسيس وإنشاء شعبة للصحف الخاصة بالغرف التجارية عام ٢٠١٩ .

■ له ركن ثابت بعنوان «ثرثرة» أسبوعياً على موقع وجريدة «الكلمة» .

الفهرس

مقدمة	٣
إهداء محذوف	٥
قهوة المجروحين	٧
الآمال	١٣
أولاد إبليس	١٩
غباء روح امرأة	٢٣
الذكريات المنسية	٢٩
باب الخوف	٤١
كرسى الحصانة وأرواح النافذة	٤٧
صاحب الجلباب الأبيض	٥٣
محامية فى بلاد السحر	٦١
لن يطفو فوق الماء	٦٧
الموروث الأسود	٧٥
بئر الظلمات	٨١
كراريس العمر	٨٩
ومرت أعوام	٩٥
الكرب الأسود	١٠٩
إدمان من نوع خاص	١١٧
نوته الرحيل	١٢١
الحلقة المفقودة	١٢٤

الطباعة
مؤسسة دار الهلال الصحفية

طبعة ٢٠١٩

وساوس هابيل

عصام الدين جاد

بين سحرين.. يتنقل الكاتب، راصدًا عددًا من المتناقضات في عالمه الخاص، الذي رسم معالمه باقتدار في سطور روايته الجديدة "وساوس هابيل"؛ ذلك العالم الذي أضفى عليه. بلغته البديعة. واقعيةً من نوع خاص، كاشفًا عن جانبين متحاورين متنافرين في عالمنا في آن، أحدهما مشرق بكل كسحر الحب، والآخر مظلم قاتم بطعم السحر الأسود.

حاور الكاتب في روايته مفاهيم. على رسوخها في كل الأذهان. تبدو عصيةً مراوغةً في دوائر سحيقة من الأضداد.. بين محبة خالصة، وكراهية غير مبررة.. بهجة ميلاد الحقيقة، وصرخة الغياب الكامل.. عشق الحياة، والتوق إلى الاختباء خلف الحياة في "رحمة" الموت.

وسوسات شيطان قابيل، ووساوس أحاطت أبناء هابيل.. تطلعات ورثة القاتل، وميراث قهري أبديّ خلّفه القتيل.. حكمة الله في خلقه.. وخلق يدعون امتلاك الحكمة..

رواية جديدة لخوض المغامرة.. مغامرة التنقل بين مشاعر متباينةٍ والسفر في رحلات متتاليةٍ، بين الأمل في استقبال الشمس بين كفين والخوف من غامضٍ محاصِرٍ ومباغت.

مصطفى زكي